

الْأَلِفُ الْاِسْمَاءُ الْاَكْبَرُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا مَنْ كُنْتَ الظَّالِمِينَ

تالیف

شیخ الاسلام ابی العباس العزیزی رحمہ اللہ

$$(51528-1565=50963)$$

تَحْفِيزٌ وَتَعْلِيْقٌ

الزَّكَاةَ عَنِ الْمَقْلُوعِ عَبْدِ الْقَهْدِ عَايِدِ

عنق مبشرہ

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا لِقَائَكَ

بومبای الہند



حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الاولى.

١٤٠٧ هـ . ١٩٨٦ م

الدار السلفية

٦/٨ اى - حضرت تيرس انيكس

شارع شيخ حفيظ الدين

بومباى - ٤٠٠ ٠٠٨ الهند

هاتف : ٣٧٧٧٥٥ - ٣٩٦٧٤٧

تلکس : ٧٦٨٣٢ - ١١ . سلفان

برقيا : «السلفية»

AL - DARUSSALAFIAH

6/8 - A, HAZRAT TERRACE ANNEXE,

SHAIKH HAFIZUDDIN ROAD

BYCULLA BRIDGE, BOMBAY - 400 008

TELEX . 011 76832 SALF IN

GRAM : «ALSALAFIAH»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المسلمين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

يسعدنا ان تقدم للقراء تحفة نادرة من درر مؤلفات شيخ الاسلام احمد بن عبدالحليم — ابن تيمية رحمه الله تعالى — وهى تفسير الآية الكريمة «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» التى قال فيها النبي ﷺ انها «دعوة اخى ذى النون . مادعاها مكروب الا فرج الله كربته» .

وكلام شيخ الاسلام ردّ لسؤال وجهه اليه بعض الناس وكان السؤال يتضمن الاستيضاح عن ثمانى نواح تتعلق بهذه الآية وهى :

- ١ — مامعنى هذه الدعوة ؟
- ٢ — لم كانت كاشفة للضر ؟
- ٣ — هل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها ؟
- ٤ — كيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها حتى يوجب كشف ضره ؟
- ٥ — مامناسبة ذكره «انى كنت من الظالمين» مع ان التوحيد يوجب كشف الضر ؟

٦ — هل يكفى المذنب اعترافه بالذنب ام لابد من التوبة والعزم في المستقبل ؟

٧ — ماهو السرّ في ان كشف الضرّ وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟

٨ — مالخيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه اليه بالكلية ؟ وماالسبب المعين على ذلك ؟

وقدوضّح شيخ الاسلام كل واحدة من هذه النقاط توضيحاً كاملاً ، وافاد واجاد . وتتجلى فيه خاصية اسلوبه الممتاز في الجدل والنقاش وهي كثرة الاستدلال بآيات القرآن وسردها لتدعيم مايقول ، والتركيز على مبدأ التوحيد .

والدار السلفية اذتقدم هذا الكتيب المفيد تريد ان تؤكد لقرائها الكرام انها تحاول بكل مaldiها من الوسائل انتزود المكتبة العربية والاسلامية بالكتب الدينية المفيدة وبخاصة من كتب تراث سلفنا الصالح اسهاماً منها في نشر الثقافة الاسلامية الصحيحة . وندعوالله تبارك وتعالى ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه ويوفقنا لمزيد من الاعمال النافعة ويقبلها منا .

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .

وصلى الله على النبي الكريم .

الراجى عفو ربه
مختار احمد الندوى
الرئيس العام
لدار السلفية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سئل شيخ الاسلام

ابن تيمية — قدس الله روحه — عن قول النبي ﷺ :
« دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴾ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ كُرْبَتَهُ » ^(١)

مامعنى هذه الدعوة ؟ .

ولم كانت كاشفة للكرب ؟

وهل لها شروطٌ باطنية عند النطق بلفظها ؟

وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها ، حتى يُوجب كشفَ ضره ؟

وما مناسبة ذكره : ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ مع ان التوحيد
يوجب كشفَ الضر ؟

وهل يكفيه اعترافه ام لابد من التوبة والعزم في المستقبل ؟

(١) الحديث اخرجه احمد (١٧٠/١) والترمذى (٥٢٩/٥) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» (٦٥٦)

والحاكم فى «المستدرک» (٥٠٥/١ ، ٣٨٣/٢) من حديث سعد بن ابى وقاص .

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» (رقم ٦٠٦ بتحققنا) وانظر تخريجه هناك .

وما هو السِّرُّ في انَّ كَشْفَ الضَّرِّ وزواله يكون عند انقطاع الرِّجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟

وما الحيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه اليه بالكلية ، ما السبب المعين على ذلك ؟ .

﴿ فَأَجَابَ ﴾ الحمد لله رب العالمين .

معنى الدعاء

لفظ « الدعاء والدعوة » في القرآن يتناول معنيين :

دعاء العبادة .

ودعاء المسألة .

قال الله تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾^(٢)

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾^(٣)

وقال تعالى :

(٢) سورة الشعراء (٢٦/٢١٣) .

(٣) سورة المومنون (٢٣/١١٧) .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾^(٤)

وقال :

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا ﴾^(٥)

وقال :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا
شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾^(٦)

وقال تعالى :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ
لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾^(٧)

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾^(٨)

وقال في آخر السورة :

﴿ قُلْ مَا يَغْبُوْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾^(٩)

(٤) سورة القصص (٨٨/٢٨) .

(٥) سورة الجن (١٩/٧٢) .

(٦) سورة النساء (١١٧/٤)

(٧) سورة الرعد (١٤/١٣)

(٨) سورة الفرقان (٦٨/٢٥)

(٩) ايضا (٧٧/٢٥)

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾^(١٤)

(المسألة والعبادة)

وكل سائلٍ راغبٍ راهبٍ فهو عابدٌ للمسئول ، وكل عابد له فهو ايضا
راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل عابد سائل وكل سائل
عابد . فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ، ولكن إذا جمع بينهما
فانه يراد بالسائل الذى يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال
والطلب . ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامثال الأمر وان لم يكن فى
ذلك صيغ سؤال .

(الخوف والرجاء)

والعابد الذى يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضا راج خائف ، راغب
راهب : يرغب فى حصول مراده ، ويرهب من فواته . قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا ﴾^(١٥)

وقال تعالى :

(١٤) سورة البقرة (١٨٦/٢)

(١٥) سورة لانبيا (٩٠/٢١)

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾^(١٦)

ولا يتصور ان يخلوا داع لله — دعاء عبادة او دعاء مسألة — من
الرجب والرهب ، من الخوف والطمع .

وما يذكر عن بعض الشيوخ انه جعل الخوف والرجاء من مقامات
العامّة ، فهذا قد يفسر مراده بان المقرّبين يريدون وجه الله فيقصدون
التلذذ بالنظر اليه . وان لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به ، وهؤلاء
يرجون حصول هذا المطلوب ويخافون حرمانه ، فلم يخلوا عن الخوف
والرجاء لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم .

ومن قال من هؤلاء :

« لم أعبدك شوقاً الى جنّتك ولا خوفاً من نارك »

فهو يظن ان الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما
لا عذاب فيه الا الم المخلوقات ، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى
الجنة ، بل كل ما عده الله لأوليائه فهو من الجنة ، والنظر اليه هو من
الجنة ، ولهذا كان افضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيز به من النار ، ولما
سأل بعض اصحابه عما يقول في صلاته قال :

انى اسأل الله الجنة واعوذ بالله من النار ، اما انى لأخسّر دُنْدَتَكَ
ولأدُنْدَنَةَ معاذ فقال :

« حَوْلَهَا دُنْدِنٌ »^(١٧)

(١٦) سورة السجدة (١٦/٣٢)

(١٧) اخرجه ابن ماجة في الاقامة (٢٩٥/١ رقم ٩١٠) وفي الدعاء (١٢٦٤/٢ رقم ٣٨٤٧) وابن خزيمة في
« صحيحه » (٣٥٨/١ رقم ٧٢٥) من حديث ابى صالح عن ابى هريرة .

واخرجه ابوداود في الصلاة (٥٠١/١ رقم ٧٩٢) واحمد في « المسند » (٤٧٤/٣ ، ٧٤/٥) فلم يذكره
الصحابي .

وقد انكر على من قال هذا الكلام يعنى اسألك لذة النظر الى وجهك^(١٨) فريق من اهل الكلام ، ظنوا ان الله لا يتلذذ بالنظر اليه ، وانه لانعم الا بمخلوق . فغلط هؤلاء في معنى الجنة كما غلط اولئك ، لكن اولئك طلبوا ما يستحق ان يطلب ، وهؤلاء انكروا ذلك .

(العزائم تنفسخ عند وجود الحقائق)

واما التألم بالنار فهو امر ضرورى ، ومن قال : لو ادخلنى النار لكنت راضيا ، فهو عزم منه على الرضا ، والعزائم قد تنسخ عند وجود

(١٨) اخرج النسائي فى كتاب السهو من «المجتبى» (٥٤/٣) عن يحيى بن حبيب بن عربى قال حدثنا حماد بن زيد قال حدثنا عطاء بن السائب عن ابيه قال صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها ، فقال له بعض القوم لقد خففت او أوجزت الصلاة ؟ فقال : أنا على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ فلما قام تبعه رجل من القوم — هو أبى غير انه كفى عن نفسه — فسأله عن الدعاء ثم جاء فاخبر به القوم .

« اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أخينى ماعلمت الحياة خيرا لى ، وتوفنى اذا علمت الوفاة خيرا لى . اللهم واسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، واسألك كلمة الحق فى الرضا والفضب ، واسألك القصد فى الفقر والغنى ، واسألك نعيما لا ينفد ، واسألك قرّة عين لا تنقطع ، واسألك الرضا بعد القضاء ، واسألك برد العيش بعد الموت ، واسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضيلة .

اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين » .

واخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٥٢٤/١) وابن حبان (٥٠٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .
واخرجه النسائي ايضا (٥٥/٣) من طريق ابى هاشم الواسطى ، عن ابى مجلز عن قيس ابن عباد قال صلى عمار... فذكره ، ورواه احمد فى «المسند» (٢٦٤/٤) .

ورجال هذا الاسناد ثقات رجال الصحيح .

ولا يلتفت الى انكار فريق من اهل الكلام لكلمات دعاء ثبتت عن النبي ﷺ .

الحقائق ، ومثل هذا يقع في كلام طائفة مثل سمنون^(١٩) الذي قال :

وليس لى فى سواك حظٌ فكيف ماشئت فامتحنى

فابتلى بعسر البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول : ادعوا
لعمم الكذاب .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾^(٢٠)

وبعض من تكلم فى علل المقامات جعل الحبّ والرّضا والخوف والرّجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر ، وان من شهد القدر^(١) فشهد توحيد الأفعال حتى فنى من لم يكن وبقي من لم يزل ، يخرج عن هذه الأمور ، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعا .

(ادعاء الصوفية المحو والفناء)

أما الحقيقة فان الحيّ لا يتصور ان لا يكون حساساً محباً لما يلائمه ،

(١٩) سمنون بن حمزة — ويقال سمنون بن عبدالله — ابولحسن الخواص .

سمى نفسه سمنونا الكذاب للواقعة المذكورة . صحب سريّا السقطى وابا احمد القلانسى وسوس ، وكان يتكلم فى المحبة بأحسن كلام ، وهو من كبار مشايخ الصوفية فى العراق ، توفى بعد الجنيد .

ترجمته فى «طبقات الصوفية» (١٩٥-١٩٩) ، «الخليّة» (٣٠٩/١٠-٣١٤) ، «تاريخ بغداد» (٢٣٤/٩-٢٣٧) ، «الرسالة القشيرية» (١٣٣/١) ، «البداية والنهاية» (١١٥/١١) .

(٢٠) سورة آل عمران (١٤٣/٣)

مبغضاً لما ينافره . ومن قال ان الحى يستوى عنده جميع المقدورات فهو احد رجلين : إما انه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل ، وإما انه مكابر معاند ولو قذر ان الانسان حصل له حال أزال عقله — سواء سمى اصطلاماً او محواً او فناءً او غشياً او ضعفاً — فهذا لم يسقط احساس نفسه بالكلية ، بل له احساس بما يلائمه وما ينافره ، وان سقط احساسه ببعض الأشياء فانه لم يسقط جميعها .

فن زعم ان المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل الى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقاً فانه غلط ، بل لابد من من الفرق فانه امر ضرورى .

لكن اذا خرج عن الفرق الشرعى بقى فى الفرق الطبعى ، فيبقى متبعاً لهواه لامطيقاً لمولاه .

ولهذا لما وقعت « هذه المسألة » بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم « الفرق الثانى » وهو : ان يفرق بين المأمور والمحظور ، وبين ما يحبه الله وما يكرهه مع شهوده للقدر الجامع ، فيشهد الفرق فى القدر الجامع . ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الاسلام .

وهؤلاء الذين يتكلمون فى الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعى بالكلية ، وان خرجوا عنه كانوا كفاراً من شر الكفار ، وهم الذين يخرجون الى التسوية بين الرسل وغيرهم ، ثم يخرجون الى القول بوحدة الوجود ، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق ؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون الى هذا الاحاد ، بل يفرقون من وجه دون وجه ، فيطيعون الله ورسوله تارة ، ويعصون الله ورسوله تارة ، كالعصاة من اهل القبلة . وهذه الأمور مبسطة فى غير هذا الموضع .

(الدعاء عبادة ومسألة)

والمقصود هنا : ان لفظ « الدعوة والدعاء » يتناول هذا وهذا ، قال الله تعالى :

﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢١)

وفي الحديث :

« افضل الذكر لا اله الا الله ، وافضل الدعاء الحمد لله . »

رواه ابن ماجة^(٢٢) وابن ابى الدنيا .

وقال النبي ﷺ في الحديث الذى رواه الترمذى وغيره :

« دعوة اخي ذى النون ﴿ لا اله الا انت سبحانك اننى
كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢٣) مادعا بها مكروب الا فرج الله
كربته . »

سماها «دعوة» لأنها تتضمن نوعى الدعاء . فقوله ﴿ لا اله الا انت ﴾ اعتراف بتوحيد الالهية . وتوحيد الالهية يتضمن أحد نوعى الدعاء ، فان الاله هو المستحق لأن يُدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة ، وهو الله لا اله الا هو .

(٢١) سورة يونس (١٠/١٠)

(٢٢) اخرج ابن ماجة فى الادب (٢/١٢٤٩ رقم ٣٨٠٠) وابن ابى الدنيا فى «كتاب الشكر» (١١٣ رقم ١٠٢) كما اخرج الترمذى فى الدعوات (٥/٢٦٢ رقم ٢٣٨٢) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» (٨٣١) والحاكم فى «المستدرک» (١/٤٩٨-٥٠٣) وابن حبان فى «صحيحه» (٢٣٢٦ موارد) والبغوى فى «شرح السنة» (٥/٤٩) وقال الالبانى : حسن .

والحديث فى «شعب الايمان» للبيهقى (الشعبة ٣٢) واستوفينا تخريجه هناك .

(٢٣) سورة الانبياء (٨٧/٢١)

وقد مرّ تخريج الحديث فى اول الكتاب .

(وجوه مختلفة للسألة)

وقوله : ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ اعتراف بالذنب ، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فان الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب ، وتارة يسأل بصيغة الخبر ، اما بوصف حاله ، واما بوصف حال المسؤول ، واما بوصف الحالي . كقول نوح عليه السلام :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢٤)

فهذا ليس صيغة طلب ، وانما هو إخبار عن الله انه إن لم يغفر له ويَرْحَمَهُ خَسِرَ .

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة ، وكذلك قول آدم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢٥)

هو من هذا الباب ، ومن ذلك قول موسى عليه السلام :

﴿ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾^(٢٦)

فان هذا وصف لحاله بانه فقير الى ما أنزل الله اليه من الخير ، وهو يتضمن لسؤال الله انزال الخير اليه .

(٢٤) سورة هود (٤٧/١١)

(٢٥) سورة الاعراف (٢٣/٧) .

(٢٦) سورة القصص (٢٤/٢٨)

وقد روى الترمذى^(٢٧) وغيره عن النبي ﷺ انه قال :

« مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أُعْطِيَته
أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ » .

رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

ورواه مالك بن الحويرث^(٢٨) وقال :

« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَته أَفْضَلَ
مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ »

وأظن البيهقى رواه مرفوعا بهذا اللفظ .

وقد سئل سفيان بن عيينة^(٢٩) عن قوله :

« أَفْضَلُ الدُّعَاءِ يَوْمَ عَرَفَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

(٢٧) فى كتاب فضائل القرآن من «جامعه» (١٨٤/٥) رقم (٢٩٢٦) وفيه :

«من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى....»

والحديث أخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان» (٥٦٧-٥٦٨ بتحقيقنا) وراجع تخريجه
هناك .

(٢٨) الصواب مالك بن الحارث . وهو تابعى روى عنه منصور . وراجع «شعب
الإيمان» (رقم ٥٧٠)

(٢٩) انظر قول سفيان فى «شان الدعاء» للخطابى (٢٠٧) ، و«فتح البارى» (١٤٧/١١) وراجع
«شعب الإيمان» .

أما الحديث : أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة الخ فأخرجه الترمذى فى
الدعوات (٥٧٢/٥) رقم (٣٥٨٥) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

وأخرجه مالك فى «الموطأ» (٤٢٢) مرسل .

فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن أبي الصلت يمدح ابن جدعان .

أذكر حَاجَتِي أم قَدْ كَفَّانِي حَبَاؤُكَ؟ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَبَاءُ
إذا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاءٌ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ

قال : فدذا مخلوق يخاطب مخلوقا فكيف بالخالق تعالى .

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام :

« اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى ، وَاَنْتَ
الْمُسْتَعَانُ ، وَبِكَ الْمُسْتَفَاثُ ، وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ »^(٣٠)

فهذا . خبر يتضمن السؤال .

(احسن طريق للسؤال)

ومن هذا الباب قول ايوب عليه السلام :

﴿ أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٣١)

فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره ،
وهي صيغة خبر تضمنت السؤال . وهذا من باب حسن الأدب في السؤال
والدعاء ، فقول القائل لمن يَعِظُّهُ ويرغب اليه : انا جائع ، انا مريض
حسن ادب في السؤال . وان كان في قوله : أَطْعِمْنِي ودَاوِنِي ونحو ذلك مما
هو بصيغة الطلب ، طلب جازم من المسؤول ؛ فذاك فيه إظهار حاله
وإخبار على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال ، وهذا فيه الرغبة

(٣٠) لم اجد من حرّجه .

(٣١) سورة الانبياء (٨٢/٢١) .

التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب .

وهذه الصيغة «صيغة الطلب والاستدعاء» اذا كانت لمن يحتاج اليه الطالب ، او ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك ، فانها تقال على وجه الأمر : إما لما في ذلك من حاجة الطالب ، وإما لما فيه من نفع المطلوب . فاما اذا كانت من الفقير من كل وجه للفقير من كل وجه فانها سؤال محض بتدلل وافتقار واطهار الحال .

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال ، وهو ابلغ من جهة العلم والبيان .

وذلك اظهر من جهة القصد والارادة ، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني ، لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول ، وتصريح به باللفظ ، وان لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسئول ، فان تضمن وصف حالهما كان اكمل من النوعين ، فانه يتضمن الخبر والعلم المقتضى للسؤال والاجابة ، ويتضمن القصد والطلب الذى هو نفس السؤال ، فيتضمن السؤال والمقتضى له والاجابة كقول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما قال : له علمنى دعاء ادعوا به فى صلاتى ، فقال :

« قُلْ : اَللّٰهُمَّ اِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيْرًا ، وَلَا يَغْفِرُ
الدُّنُوْبَ اِلَّا اَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِيْ مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ،
وَارْحَمْنِيْ اِنَّكَ اَنْتَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ »

اخرجاه فى الصحيحين^(٣٢) .

(٣٢) فاخرجه البخارى فى الاذان (٢٠٣/١) وفى الدعوات (١٥٠/٧) وفى التوحيد (١٦٨/٨) ومسلم فى الذكر (٢٧٠٥ رقم ٢٧٨) .

واخرجه ايضا احمد فى «المسند» (٧/١) والترمذى فى الدعوات (٥٤٣/٥ رقم ٣٥٣١) والنسائى فى السهو (٥٣/٣) وابن ماجه فى الدعاء (١٢٦١/٢ رقم ٣٨٣٥) وابويعلى فى «مسنده» (٧/١ منها ٣٨٠٣ رقم ٣٢) .

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضى حاجته الى المغفرة ، وفيه وصف ربّه الذي يُوجِبُ انه لا يقدرُ على هذا المطلوب غيره ، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه ، وفيه بيان المقتضى للاجابة وهو وصف الربّ بالمغفرة والرحمة فذا ونحوه اكملُ انواع الطلب .

(خصائص ادعية القرآن)

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك . كقول موسى عليه السلام :

﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْعَافِرِينَ ﴾^(٣٣)

فهذا طلبٌ ووصفٌ للمولى بما يقتضى الاجابة . وقوله :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾^(٣٤)

فيه وصف حال النفس والطلب . وقوله :

﴿ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾^(٣٥)

فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال ، فهذه انواع لكل نوع منها خاصة .

(٣٣) سورة الاعراف (١٥٥/٧)

(٣٤) سورة القصص (١٦/٢٨)

(٣٥) سورة القصص (٣٤/٢٨)

(لماذا كان دعاء ذى النون بصيغة الخبر ؟)

يبقى ان يقال فصاحب الحوت ومن اشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب ؟ .

فيقال : لأن المقام اعتراف بان ما اصابني من الشركان بذنبي . فأصل الشر هو الذنب ، والمقصود دفع الضر ، والاستغفار جاء بالقصد الثاني ، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره انه مسيء ظالم ، وهو الذى ادخل الضر على نفسه ، فناسب حاله ان يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه ، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثانى ؛ بخلاف كشف الكرب فانه مقصود له فى حال وجوده بالقصد الأول ، اذا النفس بطبعها تطلب ما هى محتاجة اليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر فى المستقبل بالقصد الثانى ، والمقصود الأول فى هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر ، فهذا مقدم فى قصده وارادته ، وأبلغ ما ينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده .

(تفسير « سبحانك »)

وهذا يتبين بالكلام على قوله : ﴿ سبحانك ﴾ فان هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه ، والمقام يقتضى تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب ، يقول : انت مقدس ومنزه عن ظلمى وعقوبتى بغير ذنب ، بل انا الظالم الذى ظلمت نفسى . قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٣٦)

(٣٦) سورة النحل (١٦/١١٨)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾^(٣٧)

وقال :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٣٨)

وقال آدم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾^(٣٩)

وكذلك قال النبی ﷺ في الحديث الصحيح الذي في مسلم في دعاء الاستفتاح :

« اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي ، فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ »^(٤٠).

(٣٧) سورة هود(١١/١٠١)

(٣٨) سورة الرحرف(٤٣/٧٦)

(٣٩) سورة الاعراف(٧/٢٣)

(٤٠) احرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين(١/٥٣٤-٥٣٥ رقم ٧٧١) عن علي بن ابي طالب عن رسول الله ﷺ انه كان اذا قام الى الصلاة قال

«وَحُثَّتْ وَحْيِي لِلدِّي فطر السموات والارض حبيفا وما انا من المتركين ان صلاتي وسكني ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وانا من المسلمين ، اللهم انت الملك لا اله الا انت انت ربي وانا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاعفِ لي ذنوبي جميعا انه لا يعمر الذنوب الا انت واهدني لاحسن الاحلاق لا يهدي لاحسها الا انت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها الا انت لئيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس اليك اياك واليك ، تباركت وتعاليت ، استعمرك واتوب اليك، الحديث

ورواه اسوداود(١/٤٨١ رقم ٧٦٠) والترمذي(٥/٤٨٥ رقم ٣٤٢١) والسنائي(٢/١٣٠) والدارمي(٢٨٢) واحمد(١/١٠٢، ٩٤) وابو يعلى في مسنده، (١/٢٤٥ رقم ٢٨٥، ٤٣٣ رقم ٥٧٤)

وفي صحيح البخارى :

« سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ :
اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ،
وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَعِظْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ
شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي
فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » .
مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا قَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ،
وَمَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى مُوقِنًا بِهَا قَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ^(٤١) .

فالعبد عليه ان يعترف بعدل الله واحسانه فانه لا يظلم الناس شيئا
فلا يعاقب احد الا بذنبه ، وهو يحسن اليهم فكل تقمة منه عدل وكل
نعمة منه فضل .

(معنى «لااله الا أنت»)

فقوله : ﴿ لااله الا أنت ﴾ فيه اثبات انفراده بالالهية ، والالهية
تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، ففيها اثبت احسانه الى العبد
فان «الاله» هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق ان يعبد ، وكونه
يستحق ان يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم ان يكون هو
المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ؛ والعبادة تتضمن غاية
الحب بغاية الذل .

(٤١) فى الدعوات (١٤٥/٧، ١٥٠)

وراجع «الصحيحة» (١٧٤٧) والحديث فى «شعب الايمان» للبيهقى (رقم ٦٥٨) فراجع تخريجه
هناك .

وقوله : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يتضمن تعظيمه وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص ، فان التسبيح وان كان يقال : يتضمن نفى النقائص ، وقد روى في حديث مرسل^(٤٢) من مراسيل موسى بن طلحة عن النبي ﷺ في قول العبد : سبحان الله .

« انها براءة الله من سوء » .

فالنفى لا يكون مدحا الا اذا تضمن ثبوتا والا فالنفى المحض لامدح فيه ، ونفى سوء والنقص عنه يستلزم اثبات محاسنه وكاله ، والله الاسماء الحسنی .

وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفى سوء والنقص عنه يتضمن اثبات محاسنه وكاله . كقوله تعالى :

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ
وَلَا نَوْمٌ﴾^(٤٣)

فنفي اخذ السنّة والنوم له يتضمن كمال حياته وقِيُومِيَّتِهِ وقوله :

﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٤٤)

يتضمن كمال قدرته ، ونحو ذلك . فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن سوء ، ونفى النقص عنه يتضمن تعظيمه . ففي قوله : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تبرئته من الظلم ، واثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم ، فان الظالم انما يظلم لحاجته الى الظلم او لجهله ، والله غني عن كل شيء ، عليم بكل شيء ، وهو غني بنفسه ، كل ماسواه فقير اليه ، وهذا كمال العظمة .

(٤٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/١٥)

(٤٣) سورة البقرة (٢/٢٥٥)

(٤٤) سورة ق (١/٢٨)

(افضل الكلام عند الله)

وايضا ففى هذا الدعاء التهليل والتسبيح فقلوه : ﴿ لا اله الا انت ﴾ تهليل . وقوله : ﴿ سبحانك ﴾ تسبيح . وقد ثبت فى الصحيح^(٤٥) عن النبي ﷺ انه قال :

« افضل الكلام بعد القرآن اربع : وهن من القرآن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله اكبر . »

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له ، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له .

وفى الصحيح^(٤٦) عن النبي ﷺ انه سئل اى الكلام افضل ؟ قال :

« مَا صُطِّفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ . »

وفى الصحيحين^(٤٧) عن النبي ﷺ انه قال :

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم . »

(٤٥) اخرجه مسلم فى الآداب من «صحيحه» (١٦٨٥/٢) من حديث سمرة بن جندب ، ولفظه :

«احب الكلام الى الله اربع....» ورواه البيهقى فى «شعب الايمان» (رقم ٥٨٥-بتحقيقنا) وراجع تخريجه هناك .

(٤٦) راجع مسلم (٢٠٩٣/٣ رقم ٢٧٣١) وراجع «شعب الايمان» (رقم ٥٨٦)

(٤٧) اخرجه البخارى فى الدعوات (١٦٨/٧) وفى الايمان والنذور (٢٢٩/٧) وفى التوحيد (٢١٩/٨) ومسلم فى الذكر (٢٠٧٢/٣ رقم ٢٦٩٤) ورواه البيهقى فى «شعب الايمان» (رقم ٥٨٥) وراجع تخريجه فيه .

وفي القرآن :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾^(٤٨)

وقالت الملائكة :

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾^(٤٩)

وهاتان الكلمتان احدهما مقرونة بالتحميد ، والاخرى بالتعظيم ، فانا قد ذكرنا ان التسبيح فيه نفى السوء والنقائص المتضمن اثبات المحاسن والكمال ، والحمد انما يكون على المحاسن ، وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والاكرام ، إذ ليس كل مُعَظَّم محبوباً محموداً ، ولا كل محبوب محموداً معظماً ، وقد تقدم ان العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد ، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ، ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن ، وفيها الذل له الناشيء عن عظمته وكبريائه . ففيها اجلاله واکرامه . وهو سبحانه المستحق للجلال والاكرام ، فهو مستحق غاية الاجلال وغاية الاكرام .

ومن الناس من يحسب ان «الجلال» هو الصفات السلبية و«الاکرام» الصفات الثبوتية ، كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق ان كليهما صفات ثبوتية ، واثبات الكمال يستلزم نفى النقائص ، لكن ذكر نوعى الثبوت وهو ما يستحق ان يُحَبَّ وما يستحق ان يُعَظَّم : كقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^(٥٠)

وقول سليمان عليه السلام :

(٤٨) سورة النصر (١١٠/٣)

(٤٩) سورة البقرة (٢/٣٠)

(٥٠) سورة لقمان (٣١/٢٦)

﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾^(٥١)

وكذلك قوله :

﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾^(٥٢)

فان كثيرا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودا بل مذموما ، إذ الحمد يتضمن الاخبار عن الحمود بمحاسنة المحبوبة ، فيتضمن اخبارا بمحاسن المحبوب محبة له .

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجزٌ وضعفٌ وذُلٌّ ينفي العظمة والغنى والملك . فالاول يُهاب ويُخاف ولا يُحَب . وهذا يُحَب ويُحمد ، ولا يُهاب ولا يُخاف . والكمال اجتماع الوصفين . كما ورد في الأثر :

« ان المؤمن رزق حلاوة ومهابة »^(٥٣)

وفي نعت النبي ﷺ :

« كان من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة
احبه »^(٥٤)

فقرن التسبيح بالتحميد ، وقرن التهليل بالتكبير ، كما في كلمات الاذان . ثم ان كل واحد من النوعين يتضمن الآخر اذا أفرد : فان

(٥١) سورة النمل (٢٧/٤٠)

(٥٢) سورة التغابن (١٦٤/١)

(٥٣) لم أجد من خرجه .

(٥٤) جاء في حديث على رضي الله عنه في نعت النبي ﷺ . أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧٠/١) وأخرجه الترمذي (٥٩٩/٥ رقم ٣٦٣٨) وقال : هذا حديث حسن غريب ليس اسناده بتصل .

التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ؛ ويتضمن اثبات ما يحمد عليه ، وذلك يستلزم الالهية . فان الالهية تتضمن كونه محبوبا ؛ بل تتضمن انه لا يستحق كال الحب الا هو . والحمد هو الاخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق ان يحب فالالهية تتضمن كال الحمد ، ولهذا كان «الحمد لله» مفتاح الخطاب . وكل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو اجذم^(٥٥)

و «سبحان الله» فيها اثبات عظمتة كما قدمناه ، ولهذا قال :

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾^(٥٦)

وقد قال النبي ﷺ :

« اجعلوها في ركوعكم »

رواه اهل السنن^(٥٧) .

وقال :

« اما الركوع فعظموا فيه الرب واما السجود

فاجتهدوا فيه بالدعاء فقم ان يستجاب لكم »

رواه مسلم^(٥٨) .

(٥٥) حديث «كل امر ذى بال لا يبدأ بالحمد لله فهو اجذم»

رواه ابوداود في «سننه» (١٧٢/٥ رقم ٤٨٤٠) وابن ماجه وابن حبان .

وهو عند البيهقي في «شعب الايمان» (الشعبة ٣٣) فراجعه .

(٥٦) سورة الواقعة (٩٦،٧٤/٥٦)

(٥٧) رواه ابوداود في «سننه» (٥٤٢/١ رقم ٨٦٩) وابن ماجه (٢٨٧/١ رقم ٨٨٧) واحمد في

«المسند» (١٥٥/٤) والحاكم (٤٧٧/٢) والبيهقي في «سننه» (٨٦/٢) .

(٥٨) في الصلاة (٣٤٨/١ رقم ٤٧٩) من حديث ابن عباس

فجعل التعظيم في الركوع اخص منه بالسجود ؛ والتسبيح يتضمن التعظيم .

ففى قوله «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» اثبات تنزيهه وتعظيمه والهيته وحده . واما قوله : « لا اله الا الله والله اكبر » ففى لاله الا الله اثبات محامده فانها كلها داخلة فى اثبات الهيته وفى قوله : « الله اكبر » اثبات عظمته فان الكبرياء تتضمن العظمة ولكن الكبرياء اكمل .

ولهذا جاءت الالفاظ المشروعة فى الصلاة والأذان بقول : « الله اكبر » فان ذلك اكمل من قول الله اعظم ، كاثبت فى الصحيح^(٥٩) عن النبي ﷺ انه قال :

« يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منها عذبتة »

فجعل العظمة كالازار ، والكبرياء كالرداء ، ومعلوم ان الرداء اشرف ، فلما كان التكبير ابلغ من التعظيم صرح بلفظه ، وتضمن ذلك التعظيم ، وفى قوله : سبحان الله ، صرح فيها بالتنزيه من السوء المتضمن للتعظيم ، فصار كل من الكلمتين متضمنا معنى الكلمتين الآخرين إذا أفردتا ، وعند الاقتران تُعطى كل كلمة خاصيتها .

= واخرجه ايضا ابوداود (٥٤٥/١ رقم ٨٧٦) والنسائي (١٨٩/٢-١٩٠-٢١٧-٢١٨) واحد فى «المسند» (٢١٩/١) والدارمى (٣٠٤) والحميدى فى «مسنده» (٢٢٨/١ رقم ٤٨٩) وعبدالرزاق فى «مصنفه» (١٤٥/٢ رقم ٢٨٣٩) وابن ابى شيبة فى «مصنفه» (٢٤٩/١) والبيهقى فى «سننه» (٨٨-٨٧/٢)

واخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه» (٢٧٦/١ رقم ٥٤٨) وابويعل فى «مسنده» (٢٣٨٧ رقم ٢٧٥/٤) .

(٥٩) رواه مسلم فى «صحيحه» فى البر (٢٠٢٣/٣ رقم ٢٦٢٠)

اخرجه ابوداود فى اللباس (٣٥٠/٤ رقم ٤٠٩٠) وابن ماجه فى «الزهد» (١٣٩٧/٢ رقم ٤١٧٤) واحد فى «المسند» (٤٤٢، ٤٢٧، ٤١٤، ٣٧٦/٢)

وهذا كما ان كل اسم من اسماء الله فانه يستلزم معنى الآخر ؛ فانه يدل على الذات ، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر ، لكن هذا باللزام . وامادلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعهما بالمطابقة ، ودالتهما على احدهما بالتضمن .

فقول الداعى : ﴿ لا اله الا انت سبحانك ﴾ يتضمن معنى الكلمات الاربع اللاتي هن افضل الكلام بعد القران . وهذه الكلمات تتضمن معانى اسماء الله الحسنى وصفاته العليا ففيها كال المدح .

وقوله : ﴿ انى كنت من الظالمين ﴾ فيه اعتراف بحقيقة حاله ، وليس لأحد من العباد ان يَبْرِّج نفسه عن هذا الوصف ، لاسيما فى مقام مناجاته لربه . وقد ثبت فى الصحاح^(٦٠) عن النبي ﷺ انه قال :

« لا ينبغي لعبد ان يقول انا خير من يونس بن متى »

وقال :

« من قال : انا خير من يونس ابن متى فقد كذب »^(٦١)

فمن ظن انه خير من يونس بحيث يعلم انه ليس عليه ان يعترف بظلم نفسه فهو كاذب ، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون انفسهم على يونس فى هذا المقام ، بل يقولون : كما قال ابوهم آدم وخاتمهم محمد ﷺ .



(٦٠) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٣٢/٤) ومسلم فى الفضائل (١٨٤٦/٢) عن ابن عباس وابى هريرة وأخرجه أيضاً ابوداود فى «السنة» (٥١/٥ رقم ٤٦٦٩) عن ابن عباس وأخرجه البخارى (١٣٢/٤) والنسائى فى «الكبرى» (تحفة الاشراف ٤٥/٧) من حديث ابن مسعود .

(٦١) أخرجه احمد (٤٥١/٢) والحاكم فى «المستدرک» (٤٨٥/٢) من حديث ابى هريرة ، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

فصل (لم كانت كاشفة للكرب ؟)

واما قول السائل : لم كانت موجبة لكشف الضر ؟ فذلك لأن الضر لا يكشفه الا الله . كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾^(١)

والذنوب سبب للضر ، والاستغفار يزيل اسبابه كما قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾^(٢)

فاخبر انه سبحانه لا يعذب مستغفرا . وفي الحديث :

« مَنْ أَكْثَرَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ،
مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »^(٣)

(١) سورة يونس (١٠٧/١٠)

(٢) سورة الانفال (٣٣/٨)

(٣) حديث ضعيف اخرجه احمد والحاكم ، وانظر تحريجه في «شعب الايمان» للبيهقي (رقم ٦٣٦)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾^(٤)

فقوله : ﴿إني كنت من الظالمين﴾ اعتراف بالذنب وهو استغفار ،
فان هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة .

وقوله : ﴿لا اله الا انت﴾ تحقيق لتوحيد الالهية . فان الخير
لاموجب له الا مشيئة الله ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، والمعوق له
من العبد هو ذنوبه ، وما كان خارجاً عن قدرة العبد فهو من الله ،
وان كانت افعال العباد بقدر الله تعالى ، لكن الله جعل فعل المأمور وترك
المحذور سبباً للنّجاة ، والسعادة ، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير ،
والاستغفار من الذنوب يُغلق باب الشر .

(الرجاء من الله وحده)

ولهذا ينبغي للعبد ان لا يُعَلّق رجاءه الا بالله ، ولا يخاف من الله ان
يظلمه : فان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون ، بل
يخاف ان يجزيه بذنوبه ، وهذا معنى ما روى عن علي رضي الله عنه انه
قال : لا يَرْجُونَ عبد الا ربّه ولا يخافن الا ذنبه .

وفي الحديث المرفوع الى النبي ﷺ انه دَخَلَ على مريض فقال :

« كيف تجدك ؟ » فقال : ارجو الله واخاف ذنوبي ، فقال :

« ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا

(٤) سورة الشورى (٤٢/٣٠)

أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»^(٥)

فالرجاء ينبغى ان يتعلق بالله ، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله ، فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك ، وان كان الله قد جعل لها اسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه ، بل لابد له من معاون ، ولا بد ان يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى الا بمشيئة الله تعالى .

ولهذا قيل : الالتفات الى الاسباب شرك في التوحيد ، ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع . ولهذا قال الله تعالى :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾^(٦)

فامر بأن تكون الرغبة اليه وحده ، وقال :

﴿ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾^(٧)

فالقلب لا يتوكل الا على من يرجوه ، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غيرناظر الى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، ومارجا احدا مخلوقا أو توكل عليه الا خاب ظنه فيه فانه مشرك :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾^(٨)

(٥) أخرجه الترمذى وابن ماجه وابويعلی والبيهقى في «شعب الايمان» (الشعبة ١٢) وراجع تخريجه فيه .

(٦) سورة الم نشرح (٨٠٧/٩٤)

(٧) سورة المائدة (٢٣/٥)

(٨) سورة الحج (٣١/٢٢)

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ، ويرجوهم ، فيحصل له رعبٌ كما قال تعالى :

﴿ سَنُلْقِيْ فِي قُلُوْبِ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوْا
بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا ۝۱۱﴾

والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال تعالى :

﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَمْ يَلْبِسُوْا اِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ اُولٰٓئِكَ
لَهُمُ الْاَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُوْنَ ۝۱۲﴾

وقد فسر النبي ﷺ الظلم هنا بالشرك . ففي الصحيح^(١١) عن ابن مسعود ان هذه الآية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبي ﷺ وقالوا :
أيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ :

« انما هذا الشرك ، الم تسمعوا الى قول العبد الصالح :
﴿ اِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ ۝۱۳﴾ ؟ »

وقال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اُنْدَادًا يُحِبُّوْنَهُمْ
كَحُبِّ اللّٰهِ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا اَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِيْنَ
ظَلَمُوْا اِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ اَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيْعًا وَّانَّ اللّٰهَ
شَدِيْدُ الْعَذَابِ ۝ اِذْ تَبَرَّأَ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْا مِنَ الَّذِيْنَ

(٩) سورة آل عمران (١٥١/٣)

(١٠) سورة الانعام (٨٢/٦)

(١١) أخرجه البخارى فى الانبياء (١١٢/٤) ومسلم فى الايمان (١١٤/١ رقم ١٢٤) واحمد فى «مسنده» (٤٤٤، ٤٢٤، ٣٧٨/١) .

(١٢) سورة لقمان (١٣/٣١)

اتَّبِعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمُ كَمَا تَبَرَّءُوا
مِنَّا كَذَلِكَ يَريهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ
بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٣﴾

وقال تعالى :

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
مَحْذُورًا ﴾ ﴿١٤﴾

ولهذا يذكر الله الأسباب . ويأمر بأن لا يُعتمد عليها ، ولا يُرجى
الا الله ، قال تعالى لما أنزل الملائكة :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١٥﴾

وقال :

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ
ذَ الَّذِي يَنْصُرْكُمُ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

(١٣) سورة البقرة (١٦٥/٢-١٦٧)

(١٤) سورة الاسراء (١٧/٥٦-٥٧) .

(١٥) سورة آل عمران (٣/١٢٦)

(١٦) ايضا (٣/١٦٠)

(الدعاء لا يصلح الا لله)

وقد قدمنا ان الدعاء نوعان :

دعاء عبادة . ودعاء مسألة .

وكلاهما لا يصلح الا لله ، فمن جعل مع الله الها آخر قعد مذموماً
مخذولاً . والراجي سائل طالب فلا يصلح أن يرجو الا الله ، ولا يسأل
غيره ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح :

« مأتاك من هذا المال وانت غير سائل ولا مشرف
فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك »^(١٧)

فالمشرف الذى يستشرف بقلبه ، والسائل الذى يسأل بلسانه ، وفي
الحديث الذى فى الصحيحين^(١٨) عن أبي سعيد الخدرى قال : أصابتنا فاقة
فجئت رسول الله ﷺ لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول :

« ايها الناس والله ! مهما يكن عندنا من خير
فلن ندخره عنكم ، وانه من يستغن يغنيه الله ، ومن
يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ،
وما أعطى أحد عطاء خيراً واوسع من الصبر »

(١٧) أخرجه البخارى فى الزكاة (١٣٠/٢) وفى الاحكام (١١١/٨) ومسلم فى الزكاة (٧٢٣/١) رقم (١٠٤٥) والبيهقى فى «شعب الايمان» (الشعبة ٢٢) وراجع بقية تخريجه هناك .

(١٨) أخرجه البخارى فى الزكاة (١٢٩/٢) وفى الرقاق (١٨٣/٧) ومسلم فى الزكاة (٧٢٩/١) رقم (١٠٥٣) وأخرجه ايضا ابوداود فى الزكاة (٢٩٥/٢) رقم (١٦٤٤) والترمذى فى البر (٣٧٣/٤) رقم (٢٠٢٤) والنسائى فى الزكاة (٩٦-٩٥/٥) والدارمى فى الزكاة (٣٨٧) واحمد فى «المسند» (٩٣، ٤٧، ١٢، ٣/٣) وعند مالك فى «الموطا» (٩٩٧) وأخرجه ابويعلى فى «مسنده» (٣٦٧/٢) رقم (١١٢٩)، ٤٥٥ رقم (١٢٦٧)، ٥٠٥ رقم (١٣٥٢)

و «الاستغناء» أن لا يرجو بقلبه أحداً فيستشرف إليه و
«الاستعفاف» أن لا يسأل بلسانه أحداً . ولهذا لما سئل احمد بن حنبل
عن التوكل فقال : قطع الاستشراف الى الخلق — اى لا يكون فى قلبك ان
احداً يأتىك بشيء — فقل له : فما الحجة فى ذلك ؟ فقال : قول الخليل
لما قال له جبرئيل هل لك من حاجة ؟ فقال :

« أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا »^(١٩)

فهذا وما يشبهه مما يُبين ان العبد فى طلب ما ينفعه ودفع ما يضره
لا يُوَجِّه قلبه الا الى الله ، فلهذا قال المكروب : ﴿ لا اله الا انت ﴾ .
ومثل هذا ما فى الصحيحين^(٢٠) عن ابن عباس ان النبى ﷺ كان يقول :
عند الكرب :

« لا اله الا الله العظيم الحليم ، لا اله الا الله رب العرش
العظيم ، لا اله رب السموات ورب الأرض ربّ العرش
الكريم » .

فان هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد ، وتألّه العبد ربه ، وتعلق رجائه
به وحده لا شريك له ، وهى لفظ خبر يتضمن الطلب .

(١٩) هذا جزء من قصة ذكرها البغوى فى «تفسيره» (٣٠١/٤) جاء فيها ان ابراهيم عليه السلام
لما رموا به فى النار جاءه جبريل فقال : يا ابراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا ،
قال جبريل : فسل ربك ، قال : حسبي من سوائى علمه بحالى .

وذكر هذه الجملة الاخيرة ابن عراق فى «تنزيه الشريعة المرفوعة» (٢٥٠/١) وقال : قال
ابن تيمية : موضوع . واورده الالبانى فى «الضعيفة» (٢١) وقال : لا اصل له .

(٢٠) اخرج البخارى فى الدعوات (١٥٤/٧) وفى التوحيد (١٧٨، ١٧٧/٨) ومسلم فى
الذكر (٢٠٩٣/٣ رقم ٢٧٣٠) واحمد فى «المسند» (٢٥٤، ٢٢٨/١، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٣٩، ٣٥٦)

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» عن عبدالله بن جعفر عن على بنخوة (رقم ٦١٤)

والناس وإن كانوا يقولون بالأسنتهم : لا اله الا الله ، فقول العبد لها
مخلصا من قلبه له حقيقة اخرى ، وبحسب تحقيق التوحيد تكل
طاعة الله . قال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ
هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(٢١)

فن جعل ما ياله هو ما يهواه فقد اتخذ الهه هواه ، اى جعل معبوده
هو ما يهواه ، وهذا حال المشركين الذين يعبد احدهم ما يستحسنه فهم
يتخذون اندادا من دون الله يحبونهم كحب الله ، ولهذا قال الخليل :

﴿ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾^(٢٢)

فان قومه لم يكونوا منكرين للصانع ، ولكن كان احدهم يعبد
ما يستحسنه ويظنه نافعا له كالشمس والقمر والكواكب ، والخليل بين ان
الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ، ولا يسمع
كلامه ، ولا يعلم حاله ، ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره ، فأى وجه
لعبادة من يأفل ؟ ! .

(الاخلاص فى الدين)

وكلما حقق العبد الاخلاص فى قول : لا اله الا الله خرج من قلبه تآله
ما يهواه ، وتصرف عنه المعاصى والذنوب ، كما قال تعالى :

(٢١) سورة الفرقان (٤٤، ٤٣/٢٥)

(٢٢) سورة الانعام (٧٦/٦)

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٢٣)

فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين ، وهؤلاء هو الذين قال فيهم :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾^(٢٤)

وقال الشيطان :

﴿ قَبِعْزَتِكَ لِأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٢٥)

وقد ثبت في الصحيح^(٢٦) عن النبي ﷺ انه قال :

« من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه حرمة الله على النار » .

فان الاخلاص ينفي اسباب دخول النار ، فمن دخل النار من القائلين لا اله الا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار ، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي اوقعه فيما ادخله النار ، والشرك في هذه الأمة اخفى من ديب النمل ، ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة ان يقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

(٢٣) سورة يوسف (٢٤/١٢)

(٢٤) سورة الحجر (٤٢/١٥)

(٢٥) سورة ص (٨٢/٣٨-٨٣)

(٢٦) أخرجه البخاري (٤١/١) ومسلم (٦١/١) وراجع تخريجه في «شعب الايمان» في التعليق على الحديث (٧)

والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك ، فلاتزال النفس تلتفت الى غير الله ، اما خوفاً منه ، واما رجاء له ؛ فلايزال العبد مفتقرا الى تخلص توحيده من شوائب الشرك ، وفي الحديث الذى رواه ابن ابي عاصم^(٢٧) وغيره عن النبي ﷺ انه قال :

« يقول الشيطان : اهلكك الناس بالذنوب واهلكوني بلاله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولايستغفرون ، لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » .

فصاحب الهوى الذى اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ الهه هواه ، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار ، واما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد ان يرفع عنه الشر ، فلهذا قال ذوالنون :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(الصلة بين التوحيد والاستغفار)

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع . كقبوله تعالى :

﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾^(٢٨)

(٢٧) في «كتاب السنة» له (١/٩٧ رقم ٧) وقال الالباني : اسناده موضوع وأفته عبدالغفور .
واخرجه ابويعلى في «مسنده» (١/٢٣ رقم ١٣٦) وقال الهيثمي : فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف (جمع الزوائد ١٠/٢٠٧)

(٢٨) سورة محمد (١٩/٤٧)

وقال :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾^(٢٩)

وقوله :

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ الى قوله ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾^(٣٠)

وقوله :

﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾^(٣١)

وخاتمة المجلس :

« سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
اسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ »^(٣٢)

ان كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه ، وان كان مجلس لغو كانت
كفارة له .

(٢٩) سورة هود (١١/٢-١٢)

(٣٠) ايضاً (١١/٥٠-٥٢)

(٣١) سورة حم السجدة (٤١/٦)

(٣٢) أخرجه النسائي في «اليوم والليلة» (٤٢٩-٤٣٠) عن أبي العالية عن النبي ﷺ مرسلًا .

وروى مرفوعاً من حديث رافع أخرجه النسائي (٤٢٧) والحاكم في «المستدرک» (٥٣٧/٢) ومن حديث أبي برزة الأسلمي أخرجه النسائي (٤٢٦) وأبو داود (١٨٢/٥ رقم ٤٨٥٩) والدارمي والحاكم في «المستدرک» (٥٣٧/١) ومن حديث نافع بن جبير عن أبيه أخرجه النسائي (٤٢٤ رقم ٥٣٧/١) والحاكم (٥٣٧/١) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٥٨٦ رقم ١٥٨٦) .

وقد روى أيضا انها تقال في آخر الوضوء بعد ان يقال :

« اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان
محمدًا عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التَّوَّابِينَ
واجعلني من الْمُتَطَهِّرِينَ »^(٣٣)

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار ، فان صدره الشهادتان
اللتان هما اصلا الدين وجماعه : فان جميع الدين داخل في «الشهادتين» إذ
مضمونها ان لا نعبد الا الله ، وان نطيع رسوله ، و«الدين» كله داخل في
هذا في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله ، كل ما يجب او يستحب داخل
في طاعة الله ورسوله .

وقد روى انه كان يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت ،
استغفرُكَ واتوبُ اليكَ » .

وهذا كفارة المجلس ، فقد شرع في آخر المجلس وفي آخر الوضوء .
وكذلك كان النبي ﷺ يختم الصلاة كما في الحديث الصحيح^(٣٤) انه كان
يقول في آخر صلاته :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ »

(٣٣) اخرج هذا الدعاء بكامله الترمذى في «جامعه» (٧٧/١-٧٨ رقم ٥٥) واخرجه دون الجملة
الاخيرة مسلم (٢٠٩/١ رقم ٢٣٤) وابوداود (١١٨/١-١١٩ رقم ١٦٩) والنسائي (٩٢/١) واحمد (١٩/١)،
١٥٣/٤) وابويعلی في «مسنده» (١٦٢/١ رقم ١٨٠، ٢١٣ رقم ٢٤٩) .

واخرج النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨١) عن ابی سعيد عن النبي ﷺ قال :
«من توضأ فقال سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرُكَ واتوبُ اليكَ
كُتِبَ في رَقٍّ ثم طبع بطابع فلم يُكسر الى يوم القيامة » .

(٣٤) راجع مسلم في صلاة المسافرين (٥٣٤/١-٥٣٦ رقم ٧٧١) وهو نفس الحديث الذي مرّ تخريجه
في التعليق رقم (٤٠) .

وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمَقْدَّمُ وَأَنْتَ
الْمُؤَخَّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ »

وهنا قدّم الدعاء وختمه بالتوحيد ، لأن الدعاء مأمور به في آخر الصلاة ، وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد ، بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فان تقديم التوحيد افضل .

فان جنس الدعاء الذى هو ثناء وعبادة افضل من جنس الدعاء الذى هو سؤال وطلب ، وان كان المفضل قد يفضل على الفاضل في موضعه الخاص بسبب وبأشياء أخرى ، كما ان الصلاة افضل من القراءة ، والقراءة افضل من الذكر الذى هو ثناء ، والذكر افضل من الدعاء الذى هو سؤال . ومع هذا فالمفضل له امكنة وازمنة واحوال يكون فيها افضل من الفاضل ، لكن اول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد ، واخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا اله الا الله .

(توحيد الالهية وتوحيد الربوبية)

فان المسلمين وان اشتركوا في الاقرار بها ، فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلا لا تقدر ان تضبطه ، حتى ان كثيرا منهم يظنون ان التوحيد المفروض هو الاقرار والتصديق بان الله خالق كل شيء وربّه . ولا يميزون بين الاقرار بتوحيد الربوبية الذى اقر به مشركو العرب . وبين توحيد الالهية الذى دعاهم اليه رسول الله ﷺ ، ولا يجمعون بين التوحيد القولى والعملى .

فان المشركين ما كانوا يقولون : إن العالم خلقه اثنان ، ولا ان مع الله ربّا ينفرد دونه بخلق شئ ؛ بل كانوا كما قال الله عنهم :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ :

وقال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾^(٣٦)

وقال تعالى :

﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ : اللَّهُ ، قُلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ : اللَّهُ . قُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ : اللَّهُ . قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟ ﴾^(٣٧)

وكانواع إقرارهم بان الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى ، يجعلونهم شفعاء لهم إليه . ويقولون : مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . ويحبونهم كحب الله .

والاشراك فى الحب والعبادة والدعاء والسؤال غيرالاشراك فى الاعتقاد والاقرار ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(٣٨)

فن أحب مخلوقا كما يحب الخالق فهو مشرك به ، قد اتخذ من دون الله أندادا يحبهم كحب الله ، وإن كان مقرا بان الله خالقه .

(٣٥) سورة لقمان (٢٥/٣١)

(٣٦) سورة يوسف (١٠٦/١٢)

(٣٧) سورة المؤمنون (٨٩-٨٤/٢٣)

(٣٨) سورة البقرة (١٦٥/٢)

(الفرق بين الحب لله والحب مع الله)

ولهذا فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقًا لله ، وبين من أحب مخلوقًا مع الله ، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذى هو منتهى حبه وعبادته لا يحب معه غيره ؛ لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله ، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل الأمور وترك المحظور أحب ذلك ، فكان حبه لما يحبه تابعًا لمحبة الله وفرعًا عليه وداخلًا فيه .

بخلاف من أحب مع الله فجعله ندًا لله يرجوه ويخافه ، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعة لله ، ويتخذة شفيعًا له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه قال تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٣٩)

وقال تعالى :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(٤٠)

وقد قال عدى بن حاتم للنبي ﷺ ما عبدوهم ، قال :

« احلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال

(٣٩) سورة يونس (١٨/١٠)

(٤٠) سورة التوبة (٣١/٩)

فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم اياهم «^(٤١) .

قال تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ
بِهِ اللَّهُ ﴾^(٤٢)

وقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي
اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾^(٤٣)

(طاعة الرسول هي طاعة الله)

فالرسول وجبت طاعته ، لأنه من يطع الرسول فقد اطاع الله ،
فالحلال ما أحلّه ، والحرام ما حرّمه ، والدين ما شرعه ، ومن سوى الرسول
من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك انما تجب طاعتهم اذا كانت طاعتهم
طاعة لله ، وهم اذا امر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخله في طاعة
الرسول ، قال تعالى :

(٤١) أخرجه الترمذى (٢٧٨/٥ رقم ٣٠٩٥) وقال حديث غريب . والبيهقى في «سننه» (١١٦/١٠)
وانظر «الدر المنثور» (١٧٤/٤) .

(٤٢) سورة الشورى (٢١/٤٢)

(٤٣) سورة الفرقان (٢٨-٢٧/٢٥)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(٤٤)

فلم يقل واطيعوا الرسول واطيعوا اولى الأمر منكم ، بل جعل طاعة
اولى الأمر داخلة في طاعة الرسول ، وطاعة الرسول طاعة لله ، واعاد
الفعل في طاعة الرسول دون طاعة اولى الامر ، فانه من يطع الرسول
فقد اطاع الله ، فليس لاحد اذا امر الرسول بأمر ان ينظر هل امر الله به
ام لا ، بخلاف اولى الامر فانهم قدياً يأمرون بمعصية الله ، فليس كل من
اطاعهم مطيعاً لله . بل لا بدّ فيما يأمرون به ان يعلم انه ليس بمعصية الله ،
وينظر هل امر الله به ام لا ، سواء كان اولى الامر من العلماء او الامراء ،
يدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة امراء السرايا وغير ذلك ، وبهذا
يكون الدين كله لله قال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ
لِلَّهِ ﴾^(٤٥)

وقال النبي ﷺ :

« لما قيل له : يا رسول الله ! الرجل يقاتل شجاعة ،
ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فأى ذلك في
سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي
العليا فهو في سبيل الله »^(٤٦)

(٤٤) سورة النساء (٥٩/٤)

(٤٥) سورة الانفال (٣٩/٨)

(٤٦) اخرج به البخارى في العلم (٤٠/١) وفي التوحيد (١٨٩/٨) ومسلم في
الامارة (١٥١٢-١٥١٣ رقم ١٩٠٤) والترمذى في فضائل الجهاد (١٧٩/٤ رقم ١٦٤٦) وابن ماجه
في الجهاد (٩٣١/٢ رقم ٢٧٨٣) واحمد في «المسند» (٤١٧، ٤٠٥، ٣٩٧/٤) والبيهقى في
«سننه» (١٦٨، ١٦٧/٩) .

ثم ان كثيرا من الناس يحب خليفة او عالما او شيخا او اميرا فيجعله ندا لله ، وان كان قديقول : انه يحبه الله .

فمن جعل غير الرسول تحب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وان خالف امر الله ورسوله فقد جعله ندا ، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ، ويدعوه ويستغيث به ، ويوالى اوليائه ، ويعادى اعداءه مع ايجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ، ويقيه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذى يدخل أصحابه في قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(٤٧)

فالتوحيد والاشراك يكون فى اقوال القلب ، ويكون فى اعمال القلب ولهذا قال الجنيد : التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب .

اراد بذلك التوحيد الذى هو التصديق ، فانه لما قرنه بالتوكل جعله اصله ، واذا افرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله ، والتوكل من تمام التوحيد .

(معنى الايمان)

وهذا كلفظ «الايمان» فانه اذا أفرد دخلت فيه الاعمال الباطنة والظاهرة .

وقيل الايمان قول وعمل ، اى قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح .

(٤٧) سورة البقرة (١٦٥/٢)

ومنه قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه :

« الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسُتُونَ شُعْبَةٌ ، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَادْنَاهَا امِاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ »^(٤٨)

ومنه قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾^(٤٩)

وقوله :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾^(٥٠)

وقوله :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾^(٥١)

(٤٨) هكذا في الاصل «بضع وستون» بدون شك . والرواية بهذه اللفظة مختصرة اخرجها مسلم في الايمان . ورواية المتن جاءت بالشك «بضع وستون أو بضع وسبعون» اخرجها مسلم ايضا وجاءت «بضع وسبعون» بدون شك عند مسلم وغيره . وراجع الكلام عليها في «شعب الايمان» (١-بتحقيقنا) .

(٤٩) سورة الحجرات (١٥/٤٩)

(٥٠) سورة الانفال (٤-٢/٨)

(٥١) سورة النور (٦٢/٢٤)

و «الايان المطلق» ىءءل فى الاسلام كما فى الصءىءىن^(٥٢) عن النبى صلّى الله عليه وآله انه قال لوقء عبءالقيس :

«أمركم بالايان بالله ؛ أءءرون ماالايان بالله ؟ شهادة
ان لاله الاالله ، وان مءمءًا رسول الله واقام الصلاة ،
وإيتاء الزكاة ، وان تؤءءوا خمس ماغنم»

ولهذا قال من قال من السلف : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنًا .

واما اذا قرن لفظ الايان بالعمل أو بالاسلام فانه يفرق بينهما كما فى قوله تعالى :

﴿ إِنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

وهو فى القرآن كثير ، وكما فى قول النبى صلّى الله عليه وآله فى الءءىء الصءىء^(٥٣) لما سأله جبريل عن الاسلام والايان والاحسان فقال :

« الاسلام : ان تشهد ان لاله الاالله وان مءمءًا
رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم
رمضان ، وتحج البيت .

قال فماالايان ؟ قال :

(٥٢) ءءىء وفد عبءالقيس اءرجه البءارى فى الايمان(١٩/١) وفى العلم(٣٠/١) وفى الآءاء(١٣٦/٨) وءىرها من المواضع - ومسلم فى الايمان(٤٧/١) وراءع ءءريجه كاملا فى «شعب الايمان»(رقم ١٨) .

(٥٣) ءءىء سوال جبريل اءرجه البءارى(١٨/١) ومسلم(٣٩/١) عن أبى هريرة .
وتفرد مسلم باءراجه من ءءىء عمر بن الخطاب وراءع التفصيل فى «شعب
الايمان»(١٩) .

« ان تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ،
والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »

قال : فما الاحسان ؟ قال :

« ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك »

ففرق في هذا النص بين الاسلام والايمان لما قرن بين الاسمين وفي ذلك النص ادخل الاسلام في الايمان لما افردته بالذكر .

وكذلك لفظ «العمل» فان الاسلام المذكور هو من العمل ، والعمل الظاهر هو موجب ايمان القلب ومقتضاه ، فاذا حصل ايمان القلب حصل ايمان الجوارح ضرورة ، وايمان القلب لا بد فيه من تصديق القلب واتقياده ، والا فلو صدق قلبه بان محمداً رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعتة لم يكن قد آمن قلبه .

و «الايمان» وان تضمن التصديق فليس هو مرادفاً له ، فلا يقال لكل مصدق بشئى : انه مؤمن به . فلو قال : انا اصدق بأن الواحد نصف الاثنين ، وان السماء فوقنا والارض تحتنا ، ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يقل لهذا : انه مؤمن بذلك ؛ بل لا يستعمل الا فيمن أخبر بشئى من الامور الغائبة كقول اخوة يوسف :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾^(٥٤)

فانهم اخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به فالاول يقال للمخبر ، والثانى يقال للمخبر به كما قال اخوة يوسف :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾

وقال تعالى :

(٥٤) سورة يوسف (١٢/١٧)

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ﴾^(٥٥)

وقال تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٥٦)

ففرق بين ايمانه بالله وايمانه للمؤمنين ؛ لان المراد يصدق المؤمن اذا أخبروه واما ايمانه بالله فهو من باب الاقرار به .

ومنه قوله تعالى عن فرعون وملائه :

﴿ أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾^(٥٧) اى نقر لها ونصدقها .

ومنه قوله :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٥٨)

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى ﴾^(٥٩)

ومن المعنى الآخر قوله تعالى :

(٥٥) سورة يونس (٨٣/١٠)

(٥٦) سورة التوبة (٦١/٩)

(٥٧) سورة المؤمنون (٤٧/٢٣)

(٥٨) سورة البقرة (٧٥/٢)

(٥٩) سورة العنكبوت (٢٦/٢٩)

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(٦٠)

وقوله :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ
آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْ رُّسُلِهِ﴾^(٦١)

وقوله :

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾^(٦٢)

أى اقر بذلك ومثل هذا فى القرآن كثير .

و (المقصود هنا) ان لفظ «الايان» انما يستعمل فى بعض الاخبار ،
وهو مأخوذ من الأمن ، كما ان الاقرار مأخوذ من قر ، فالمؤمن صاحب
امن ، كما ان المقر صاحب إقرار ، فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب
تصديقه ، فاذا كان عالما بأن محمدا رسول الله ، ولم يقترب بذلك حبه
وتعظيمه بل كان يبغيضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس
بمؤمن به بل كافر به .

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه
كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء ، فان ابليس لم يكذب خيرا ولا مخبرا بل
استكبر عن امر ربه . وفرعون وقومه قال الله فيهم :

(٦٠) سورة البقرة (٣/٢)

(٦١) ايضاً (٢٨٥/٢)

(٦٢) ايضاً (١٧٧/٢)

﴿ وَجَعَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾^(٦٣)

وقال له موسى :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
بَصَائِرَ ﴾^(٦٤)

وقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ ﴾^(٦٥)

فجرد علم القلب بالحق ان لم يقتن به عمل القلب بموجب علمه مثل
حبة القلب له ، واتباع القلب له لم ينفع صاحبه ، بل اشد الناس عذابا
يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وقد كان النبي ﷺ يقول :

« اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ، ونفس
لا تشبع ، ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع »^(٦٦)

ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان ، وان
من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه ،
وهذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا . وحقيقتها توجب التسوية بين المؤمن
والكافر ، ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة
كفرهم بذلك ، فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالما بالحق ويبغضه
لفرض آخر ، فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به ،

(٦٣) سورة المل (١٤/٢٧)

(٦٤) سورة الاسراء (١٠٢/١٧)

(٦٥) سورة البقرة (١٤٦/٢)

(٦٦) احرجه مسلم في الذكر (٢٠٨٨/٣) من حديث ريد بن ارقم . واحرجه البيهقي في «شعب
الايمان» (التبعة ١٨) من حديث اس . وراجع تحريجه هاك .

وحيئنذ فالايان لابد فيه من تصديق القلب وعمله ، وهذا معنى قول السلف : الايمان قول وعمل .

ثم انه اذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة ، فان الارادة الجازمة اذ اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعاً ، وانما ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة ، او لعدم كمال الارادة ، والا فع كالمها يجب وجود الفعل الاختياري ، فاذا اقر القلب اقراراً تاماً بان محمداً رسول الله واحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، لكن ان كان عاجزاً لخرس ونحوه او لخوف ونحوه لم يكن قادراً على النطق بهما .

و«ابوطالب» وان كان عالماً بان محمداً رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبهته لله ، بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة ، واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة ، فأصل محبوه هو الرئاسة ، فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بهما زوال دينه الذي يحبه . فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يُقرّ بهما — فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه ابوبكر الذي قال الله فيه :

﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝
وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝ ﴾^(٦٧)

وكما كان يحبه سائر المؤمنين به ، كعمر وعثمان وعلى وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعاً — فكان حبه حبا مع الله لاحبا لله ، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرتة لأنه لم يَعْمَلْهُ لله ، والله لا يقبل من العمل الا ما يريد به وجهه ، بخلاف الذى فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

(٦٧) سورة الليل (١٧/٩٢-٢١)

(الدين لا يكمل الا بالعمل)

وهذا مما يحقق ان «الايان ، والتوحيد» لابد فيها من عمل القلب ، كحب القلب ، فلا بد من اخلاص الدين لله ، والدين لا يكون ديناً الا بعمل ، فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة ؛ وقد انزل الله عز وجل سورتي الاخلاص^(٦٨)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

احداها في توحيد القول والعلم . والثانية في توحيد العمل والارادة ، فقال في الأول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثاني :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله واخلاص العبادة لله .

و «العبادة» اصلها القصد والارادة . والعبادة اذا أُفردت دخل فيها التوكل ونحوه ، واذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيماً لها ، كما ذكرناه في لفظ الايمان ، قال تعالى :

(٦٨) انظر «تفسير سورة الاخلاص» لشيخ الاسلام - طبعة الدار السلفية .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٦٩)

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾^(٧٠)

فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات ؛ والتوكل من ذلك ، وقد قال في موضع آخر :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

وقال :

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾^(٧١)

(تنوع دلالة الفاظ القرآن)

ومثل هذا كثيرًا ما يجئ في القرآن : تنوع دلالة اللفظ في عمومه وخصوصه بحسب الافراد والاقتران ؛ كلفظ «المعروف والمنكر» فانه قد قال :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(٧٢)

وقال :

(٦٩) سورة الذاريات (٥٦/٥١)

(٧٠) سورة البقرة (٢١/٢)

(٧١) سورة هود (١٢٣/١١)

(٧٢) سورة آل عمران (١١٠/٣)

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٧٣)

وقال :

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٧٤)

فالمنكر يدخل فيه ماكرهه الله : كما يدخل في المعروف ما يحبه الله .

وقد قال في موضع آخر :

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٧٥)

فعطف المنكر على الفحشاء ، ودخل في المنكر هنا البغى . وقال في
موضع آخر :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى
وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٧٦)

فقرن بالمنكر الفحشاء والبغى .

ومن هذا الباب لفظ «الفقراء ، والمساكين» اذا أفرد احدهما دخل فيه
الآخر ، واذا قرن احدهما بالآخر صار بينهما فرق ؛ لكن هناك احد
الاسمين اعم من الآخر ، وهنا بينهما عموم وخصوص ، فحبة الله وحده
والتوكل عليه وحده وخشية الله وحده ونحو هذا كل هذا يدخل في
توحيد الله تعالى ، قال تعالى في المحبة :

(٧٣) سورة التوبة (٧١/٩)

(٧٤) سورة الاعراف (١٥٧/٧)

(٧٥) سورة العنكبوت (٤٥/٢٩)

(٧٦) سورة النمل (٩٠/١٦)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(٧٧)

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾^(٧٨)

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾^(٧٩)

فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾^(٨٠)

وقال تعالى :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾^(٨١)

(٧٧) سورة البقرة (١٦٥/٢)

(٧٨) سورة التوبة (٢٤/٩)

(٧٩) سورة النور (٥٢/٢٤)

(٨٠) سورة التوبة (٥٩/٩)

(٨١) سورة الم نشرح (٨٠-٧/٩٤)

فجعل التحسب والرغبة الى الله وحده .
وهذه الامور مبسوبة في غير هذا الموضع .

(تحقيق توحيد الالهية)

و (المقصود هنا) ان قول القائل : ﴿ لا اله الا أنت ﴾ فيه افراد الالهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملاً ، فالمشركون كانوا يَقْرُون بان الله رب كل شيء ؛ لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى ، فلا يَخْصُونه بالالهية . وتخصيصه بالالهية يوجب ان لا يعبد الا اياه ، وان لا يسأل غيره ، كما في قوله :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

فان الانسان قديقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه ، لكن في امور لا يحبها الله ، بل يكرها وينهى عنها ، فهذا وان كان مخلصا له في سؤاله والتوكل عليه ، لكن ليس هو مخلصا في عبادته وطاعته ، وهذا حال كثير من اهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله ، فانهم يعانون على هذه الأمور .

وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لأمر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة ، وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا
إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمُ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا ﴾ ^(٨٢)

(٨٢) سورة الاسراء (٦٧/١٧)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ﴾^(٨٣)

وطائفة اخرى قديقصدون طاعة الله ورسوله ، لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به . فهولاء يثابون على حسن نيتهم ، وعلى طاعتهم ، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه ، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه ، ولهذا يبتلى الواحد من هولاء بالضعف والجزع تارة ، وبالاعجاب أخرى ، فان لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع . فان حصل مراده نظر الى نفسه وقوته فحصل له اعجاب ، وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل . قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾^(٨٤) الى قوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(الفرق بين الرياء والعجب)

وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب ، فالرياء من باب الاشراك بالخلق ، والعجب من باب الاشراك بالنفس وهذا حال المستكبر ، فالمرأى لا يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والمُعجب لا يحقق

(٨٣) سورة يونس (١٠/١٢)

(٨٤) سورة التوبة (٩/٢٥-٢٧)

قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فمن حقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَقْبُدُ ﴾ خرج
عن الرياء ومن حقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ خرج عن
الاعجاب ، وفي الحديث المعروف :

« ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ،
واعجاب المرء بنفسه »^(٨٥)

وشر من هولاء وهولاء من لا تكون عبادته لله ولا استعانته بالله بل
يعبد غيره ويستعين غيره وهولاء المشركون من الوجهين .

ومن هولاء من يكون شركه بالشياطين كاصحاب الأحوال الشيطانية
فيفعلون ماتحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعونه بأدعية تحبها
الشياطين ويعزمون بالعزائم التي تطيعها الشياطين مما فيها اشراك بالله .
كما قد بسط الكلام عليهم في مواضع اخر .

وهولاء قد يحصل لهم من الخوارق ما يظن انه من كرامات الأولياء .
وانما هو من احوال السحرة والكهان ، ولهذا يجب الفرق بين الأحوال
الايمانية القرآنية والأحوال النفسانية والأحوال الشيطانية .

واما القسم الرابع فهم اهل التوحيد الذين اخلصوا دينهم لله فلم
يعبدوا الا اياه ولم يتوكلوا الا عليه .

وقول المكروب : ﴿ لا اله الا أنت ﴾ قد يستحضر في ذلك احد
النوعين دون الآخر فمن أتم الله عليه النعمة استحضر التوحيد في النوعين ،
فان المكروب همته منصرفة الى دفع ضره وجلب نفعه ، فقد يقول :

(٨٥) روى عن حديث انس وعبد الله بن عباس وابي هريرة وعبد الله بن ابي اوفى وعبد الله بن
عمر .

واخرجه البيهقي في «شعب الايمان» (الشعبة ١١) وتكلم عليه الشيخ الالباني في
«الصحيحة» (١٨٠٢)

« لا اله الا الله » مستشعرا انه لا يكشف الضرَّ غيرُك ، ولا يأتي بالنعمة الا أنت فهذا مستحضّر توحيد الربوبية ، ومستحضّر توحيد السؤال والطلب ، والتوكل عليه ، معرض عن توحيد الالهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به وهو أن لا يعبد الا اياه ولا يعبد الا بطاعته وطاعة رسوله ، فمن استشعر هذا في قوله : ﴿ لا اله الا أنت ﴾ كان عابداً لله متوكلاً عليه وكان ممثلاً لقوله :

﴿ قَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾^(٨٦)

وقوله :

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾^(٨٧)

وقوله :

﴿ وَادْكُرْ أَثَمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾^(٨٨)

ثم ان كان مطلوبه محرماً أثم وان قضيت حاجته . وان كان طالباً مباحاً لغير قصد الاستعانة به على طاعة الله وعبادته ، لم يكن أثماً ولا مثاباً ، وان كان طالباً ما يعينه على طاعة الله وعبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثاباً مأجوراً .

وهذا مما يفرق به بين العبد الرسول وخلفائه ، وبين النبي الملك ، فان نبينا محمداً ﷺ خير بين ان يكون نبياً ملكاً او عبداً رسولاً ،

(٨٦) سورة هود (١١/١٢٣)

(٨٧) ايضاً (١١/٨٨)

(٨٨) سورة المزمل (٧٣/٩-٨)

فاختار ان يكون عبداً رسولاً^(٨٩)، فان العبد الرسول هو الذى لا يفعل الا ما أمر به ، ففعله كله عبادة لله ، فهو عبد محض مُتَفَضِّلٌ أَمْرُ مُرْسِلِهِ ، كما ثبت عنه في صحيح البخارى^(٩٠) انه قال :

« إني والله لا أعطى أحداً ولا أمانع أحداً وإنما أنا قاسم
أضع حيث أمرت » .

وهو لم يرد بقوله « لا أعطى أحداً ولا أمانع » إفراد الله بذلك قدرًا وكونًا ، فان جميع المخلوقين يشاركونه في هذا فلا يعطى أحداً ولا يمنع الا بقضاء الله وقدره ، وإنما أراد إفراد الله بذلك شرعاً ودينًا . أى لا أعطى الا من أمرتُ بإعطائه ، ولا أمانع الا من أمرتُ بمنعه ، فأنا مطيع لله في إعطائى ومنعى ، فهو يقسم الصدقة والفقى والغنائم كما يقسم المواريث بين اهلها ، لأن الله امره بهذه القسمة .

(مال الله ورسوله ما يصرف في طاعة الله ورسوله)

ولهذا كان المال حيث اضيف الى الله ورسوله فالمراد به ما يجب ان يُصْرَفَ في طاعة الله ورسوله ، وليس المراد به انه ملكٌ للرسول ، كما ظنّه طائفة من الفقهاء ، ولا المراد به كونه مملوكاً لله خلقاً وقدرًا ، فان جميع الأموال بهذه المثابة ، وهذا كقوله :

﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾^(٩١)

(٨٩) أخرجه البيهقى في «شعب الايمان» (رقم ١٥٣) وراجع الكلام عليه هناك .

(٩٠) أخرجه البخارى في المحسن (٤٩/٤) واحد في «المسند» (٤٨٢/٢) من حديث أبى هريرة .

(٩١) سورة الانفال (١/٨)

وقوله :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
وَلِلرَّسُولِ ﴾^(٩٢) الآية .

وقوله :

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ
مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾^(٩٣) الى قوله ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَى ﴾ الآية .

فذكر في الفئء ماذكر في الخمس .

فظن طائفة من الفقهاء ان الاضافة الى الرسول تقتضى انه يملكه ، كما
يملك الناس املاكهم . ثم قال بعضهم : ان غنائم بدر كانت ملكا للرسول .
وقال بعضهم : ان الفئء واربعة اخماسه كان ملكا للرسول . وقال بعضهم :
ان الرسول انما كان يستحق من الخمس خُمسه . وقال بعض هؤلاء :
وكذلك كان يستحق من خمس الفئ خمسة ، وهذه الاقوال توجد في كلام
طوائف من اصحاب الشافعى واحمد وابى حنيفة وغيرهم ، وهذا غلط من
وجوه :

(دلائل خطأ رأى الفقهاء)

(منها) ان الرسول لم يكن يملك هذه الاموال كما يملك الناس اموالهم ،

(٩٢) ايضاً (٤١/٨)

(٩٣) سورة الحتر (٧-٦/٥٩)

ولا كما يتصرف الملوك في ملكهم ، فان هؤلاء وهؤلاء لهم ان يصرفوا اموالهم في المباحات ، فاما ان يكون مالكا له فيصرف في اغراضه الخاصة ، واما ان يكون مَلِكاً له فيصرفه في مصلحة ملكه ، وهذه حال النبي الملك كداود وسليمان . قال تعالى :

﴿ فَأَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(١٤)

اي اعط من شئت واحرم من شئت لاحساب عليك ، ونبينا كان عبداً رسولاً لا يعطى الا من امر باعطائه ، ولا يمنع الا من امر بمنعه ، فلم يكن يصرف الأموال الا في عبادة الله وطاعة له .

(ومنها) ان النبي لا يُورَثُ ولو كان مَلِكاً ، فان الأنبياء لا يورثون فاذا كان ملوك الأنبياء لم يكونوا ملاكا كما يملك الناس اموالهم ، فكيف يكون صفوة الرسل الذي هو عبد رسول مالكا .

(ومنها) ان النبي ﷺ كان ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة ، ويصرف سائر المال في طاعة الله لا يستفضله ، وليست هذه حال الملأك ، بل المال الذي يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله ، بمعنى ان الله امر رسوله ان يصرف ذلك المال في طاعته ، فتجب طاعته في قسمه ، كما تجب طاعته في سائر ما يأمر به ؛ فانه من يطع الرسول فقد اطاع الله ، وهو في ذلك مُبَلَّغٌ عن الله .

والاموال التي كان يقسمها النبي ﷺ على وجهين :

(منها) : ماتعتين مستحقته ومصرفه كالمواريث .

(ومنها) ما يحتاج الى اجتهاده ونظره ورأيه ، فان ما امر الله به منه ما هو محدود بالشرع : كالصلاة الخمس ، وطواف الاسبوع بالبيت ، ومنه

ما يرجع في قدره الى اجتهاد الأمور فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التي يحبها الله .

فمن هذا ما اتفق عليه الناس ، ومنه ما تنازعوا فيه : كتنازع الفقهاء فيما يجب للزوجات من النفقات : هل هي مقدرة بالشرع ؟ ام يرجع فيها الى العرف ، فتختلف في قدرها وصفتها باختلاف احوال الناس ؟ . وجهور الفقهاء على القول الثاني ، وهو الصواب لقول النبي ﷺ لهند :

« خَذِي مَا يَكْفِيكِ وَلَدَاكِ بِالْمَعْرُوفِ »^(٩٥)

وقال ايضاً : في خطبة المعروفة :

« لِلنِّسَاءِ كِسْوَتُهُنَّ وَنَفَقَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ »^(٩٦)

وكذلك تنازعوا ايضاً فيما يجب من الكفارات : هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف ؟

فما أضيف الى الله والرسول من الأموال كان المرجع في قسمته الى امر النبي ﷺ ؛ بخلاف ما سُميَ مستحقوه كالمواريث ، ولهذا قال النبي ﷺ عام حنين :

« ليس لي مما فاء الله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم »^(٩٧)

(٩٥) أخرجه البخاري في البيوع (٣٦/٣) وفي النفقات (١٩٣/٦) ومسلم في الاقضية (١٣٣٨/٢) رقم (٧) والنسائي في آداب القضاة (٢٤٦/٨-٢٤٧) وابن ماجه في التجارات (٧٦٩/٢) رقم (٢٢٩٣) والدارمي (٥٥٥) .

(٩٦) راجع خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع عند مسلم (٨٨٦/١-٨٩٢) رقم (١٢١٨) وابي داود (٤٦٤-٤٥٥) رقم (١٩٠٥) وابن ماجه (١٠٢٢/٢-١٠٢٧) رقم (٣٠٧٤) .

(٩٧) أخرجه ابوداود (١٨٨/٣) رقم (٢٧٥٥) والحاكم (٦١٦/٣) والبيهقي في «سننه» (٢٣٩/٦) عن عمرو بن عبسة

اي ليس له بحكم القسم الذى يرجع فيه الى اجتهاده ونظره الخاص
الا الخمس ، ولهذا قال : « وهو مردود عليكم » بخلاف اربعة اخماس
الغنية فانه لمن شهد الواقعة .

ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الفاعين ، والخمس يرفع الى
الخلفاء الراشدين المهديين الذى خلفوا رسول الله ﷺ في امته فيقسمونها
بامرهم ، فاما اربعة الاخماس فانما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله
كما يستفي المستفي ، وكما كانوا في الحدود لمعرفة الامر الشرعى ، والنبي ﷺ
اعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما اعطاهم ؛ فقليل ؛ إن ذلك كان من
الخمس ؛ وقيل ؛ انه كان من اصل الغنية ؛ وعلى هذا القول فهو فعل
ذلك لطيب نفوس المؤمنين بذلك ؛ ولهذا أجاب من عتب من الأنصار
بما زال عتبه واراد تعويضهم عن ذلك .

ومن الناس من يقول الغنية قبل القسمة لم يملكها الفاعون ؛ وان
للامام ان يتصرف فيها باجتهاده كما هو مذكور في غير هذا الموضع .

(العباداة والسوال وسيلتان لتحقيق توحيد الالهية وتوحيد الربوبية)

فان المقصود هنا بيان حال العبد المخلص لله الذى يعبده ويستعينه ،
فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

= واخرج ابوداود (١٤٢/٣-١٤٣ رقم ٢٦٩٤) والنسائي (١٣١/٧) واحمد والبيهقى (٢٣٦-٢٣٧) عن
عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده بمثله . وراجع «ارواء الغليل» (١٢٤٠)

توحيد الالهية وتوحيد الربوبية ؛ وان كانت الالهية تتضمن الربوبية ؛
والربوبية تستلزم الالهية ؛ فان احدهما اذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع
ان يختص بمعناه عند الاقتران ، كما في قوله :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ﴾^(١٨)

وفي قوله :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

فجمع بين الاسمين : اسم الاله واسم الرب . فان «الاله» هو المعبود الذى
يستحق ان يعبد . و«الرب» هو الذى يرب عبده فيدبره .

(الله والرب)

ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه الله ، والسؤال متعلقا باسمه الرب ،
فان العبادة هى الغاية التى لها خلق الخلق ، والالهية هى الغاية ،
الربوبية تتضمن خلق الخلق وانشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم ، والمصلى
اذا قال :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

فبدأ بالمقصود الذى هو الغاية على الوسيلة التى هى البداية ، فالعبادة
غاية مقصودة ، والاستعانة وسيلة اليها ، تلك حكمة وهذا سبب ، والفرق
بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف ، ولهذا يقال : أول الفكرة آخر
العمل وأول البغية آخر الدرك .

(١٨) سورة الناس (١١٤/٣-١)

فالعلة الغائية متقدمة في التصور والارادة وهي متأخرة في الوجود ،
فالؤمن يقصد عبادة الله ابتداء وهو يعلم ان ذلك لا يحصل إلا باعائه
فيقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ولما كانت العبادة متعلقة باسمه : الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة
بهذا الاسم مثل كلمات الأذان ، الله اكبر ، الله اكبر . ومثل الشهادتين :
اشهد ان لا اله الا الله . اشهد ان محمدا رسول الله ومثل التشهد : «التحيات
لله» ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير : سبحان الله ، والحمد لله ،
لا اله الا الله ، الله اكبر .

وأما السؤال فكثيرا ما يجيء باسم الرب كقول آدم وحواء :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٩٩)

وقول نوح :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ
عِلْمٌ ﴾^(١٠٠)

وقول موسى :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾^(١٠١)

قول الخليل :

(٩٩) سورة الاعراف (٢٣/٧)

(١٠٠) سورة هود (٤٧/١١)

(١٠١) سورة القصص (١٦/٢٨)

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ^(١٠٢) ۝ الْآيَةُ .

وقوله مع اسماعيل :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(١٠٣) ۝

وكذلك قول الذين قالوا :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ^(١٠٤) ۝ ومثل هذا كثير .

وقد نقل عن مالك انه قال : أكره للرجل ان يقول في دعائه :
ياسيدى ! ياسيدى ! يا حنان ! يا حنان ! ولكن يدعو بما دعت به
لأنبياء ، ربنا ! ربنا ! نقله عنه العتبي ^(١٠٥) في العتبية .

وقال تعالى : عن اولى الالباب :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

(١٠٢) سورة ابراهيم (٣٧/١٤)

(١٠٣) سورة البقرة (١٢٧/٢)

(١٠٤) ايضاً (٢٠١/٢)

(١٠٥) العتبي ، ابو عبدالله ، محمد بن احمد بن عبدالعزير بن عتبة بن حميد بن عتبة بن
ابى سفيان ، الاموى السفياني القرطبي ، المالكي (م ٢٥٥هـ)

فقيه الاندلس ، وصاحب كتاب العتبية رجل وأحد عن سحنون وأصع
وطرائفها ، وكان حافظاً للمسائل ، حامعاً لها ، عالماً بالوارل جمع المستخرجة
(وهى العتبية) واكثر فيها من الروايات المطروحة ، والمسائل الشادة

راجع ترجمته في «تاريخ علماء الاندلس» (٧-٦/٢) «السير» (٢٣٦-٢٣٥/١٢)
«الواقى» (٣٠/٢) «ترتيب المدارك» (١٤٦-١٤٤/٣) «الديباح المذهب» (٢٣٨)

هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٠٦﴾ الْآيَات .

فاذا سبق الى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب .
وان سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسناً ، واما اذا سبق الى قلبه
قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك . اذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله ، واذا قصد
الدعاء باسم الرب ، ولهذا قال يونس :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠٧)

وقال آدم :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٠٨)

فان يونس عليه السلام ذهب مغاضبا ، وقال تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (١٠٩)

وقال تعالى :

﴿ قَالَتْقَمَّةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (١١٠)

ففعل ما يلام عليه فكان المناسب لحاله ان يبدأ بالثناء على ربه ،
والاعتراف بانه لا اله الا هو فهو الذى يستحق ان يُعبد دون غيره
فلا يُطاع الهوى ، فان اتباع الهوى يضعف عبادة الله وحده .

(١٠٦) سورة ال عمران (١٩١/٣)

(١٠٧) سورة الأنبياء (٨٧/٢١)

(١٠٨) سورة الاعراف (٢٣/٧)

(١٠٩) سورة القلم (٤٨/٦٨)

(١١٠) سورة الصافات (١٤٢/٣٧)

وقد روى ان يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد ان اظلمهم وخاف ان ينسبوه الى الكذب ففاضب ، وفعل ما اقتضى الكلام الذى ذكره الله تعالى وان يقال ﴿ لا اله الا الله ﴾ وهذا الكلام يتضمن براءة ماسوى الله من الالهية ، سواء صدر ذلك عن هوى النفس او طاعة الخلق او غير ذلك . ولهذا قال :

﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابق ، وفيما يريده وهو غير حسن .

وأما آدم عليه السلام فانه اعترف اولا بذنبه فقال : ﴿ ظلمنا انفسنا ﴾ ولم يكن عند آدم من ينازعه الارادة لما امر الله به . مما يزاحم الالهية بل ظن صدق الشيطان الذى :

﴿ قاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، قَدْ لَأُھَمَّا
بِغُرُورٍ ﴾^(١١١)

فالشيطان غرّهما وأظهر نصحهما فكانا فى قبول غروره وما اظهر من نصحه حالهما مناسباً لقولهما : ﴿ ربنا ظلمنا انفسنا ﴾ لما حصل من التفريط ، لا لأجل هوى وحظ يزاحم الالهية ، وكنا محتاجين الى ان يريهما ربوبية تكمل علمهما وقصدهما ، حتى لا يغترا بمثل ذلك ، فهما يشهدان حاجتهما الى الله ربهما الذى لا يقضى حاجتهما غيره .

وذوالنؤن شهد ما حصل من التقصير فى حق الالهية بما حصل من المغاضبة وكراهة انجاء اولئك ، ففى ذلك من المعارضة فى الفعل لحب شئ آخر ما يوجب تجريد محبته لله وتأله له وان يقول : (لا اله الا انت) فان قول العبد : لا اله الا انت ، يحو ان يتخذ الهه هواه . وقد روى :

« ماتحت أديم السماء الة يُعبد اعظم عندالله من هوى مُتَّبَع »^(١١٢)

فكُل يونس صلوات الله عليه تحقيق الهيته لله ، ومحو الهوى الذى يتخذ الها من دونه . فلم يبق له صلوات الله عليه وسلامه عند تحقيق قوله « لاله الا انت » ارادة تراحم الهية الحق ، بل كان مخلصا لله الدين اذ كان من افضل عبادالله المخلصين .

و(ايضا) فمثل هذه الحال تعرض لمن تعرض له ، فيبقى فيه نوع مفاضبة للقدر ومعارضة له في خلقه وامره ، ووساوس في حكته ورحمته ، فيحتاج العبد ان ينفى عنه شيئين : الآراء الفاسدة والأهواء الفاسدة ، فيعلم ان الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكته لافيا اقتضاه علم العبد وحكته ، ويكون هواه تبعا لما امرالله به ، فلا يكون له مع امرالله وحكمه هوى يخالف ذلك . قال الله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(١١٣)

وقد روى عنه عليه السلام انه قال :

« والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »^(١١٤) رواه ابو حاتم في صحيحه .

(١١٢) رواه الطبراني في «الكبير» عن ابي امامة . وقال الهيثمي : فيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث (مجمع الزوائد، ١/١٨٨) .

(١١٣) سورة النساء (٦٥/٤)

(١١٤) ورواه البغوي في «شرح السنة» (٢١٣/١)

وفي الصحيح^(١١٥)

« ان عمر قال له : يا رسول الله ! والله لأنت احب الي

من نفسي . قال : الآن يا عمر »

وفي الصحيح^(١١٦) عنه عليه السلام انه قال :

« لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده

ووالده والناس اجمعين »

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا . وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾^(١١٧)

فاذا كان الايمان لا يحصل حتى يحكم العبد رسوله ويسلم له ، ويكون هواه تبعاً لما جاء به ، ويكون الرسول والجهاد في سبيله مقدماً على حب الانسان نفسه وماله واهله ، فكيف في تحكيه الله تعالى والتسليم له ؟ ! فمن رأى قومًا يستحقون العذاب في ظنه ، وقد غفر الله لهم ورحمهم ، وكره هو ذلك ، فهذا اما ان يكون عن ارادة تخالف حكم الله واما عن ظن يخالف علم الله ، والله عليم حكيم . واذا علمت انه عليم ، وانه حكيم لم يبق لكراهية ما فعله وجه ، وهذا يكون فيما امر به وفيما خلقه ولم يأمرنا ان نكرهه ونغضب عليه .

(١١٥) أخرجه البخارى في الايمان والنذور (٢١٨/٧) واحمد في «المسند» (٣٣٦/٤)

(١١٦) رواه البخارى عن ابى هريرة وعن انس (٩/١) ومسلم عن انس (٦٧/١) وهو عند البيهقى في «شعب الايمان» (الشعبة ١٤) .

(١١٧) سورة التوبة (٢٤/٩)

فأما ما امرنا بكراهته من الموجودات : كالكفر والفسوق والعصيان فعلينا ان نطيعه في امره بخلاف توبته على عباده وانجائه اياهم من العذاب فان هذا من مفعولاته التي لم يأمرنا ان نكرهها ، بل هي مما يحبها فانه يحب التوابين ويحب المتطهرين . فكراهة هذا من نوع اتباع الارادة المزاحمة للالهية . فعلى صاحبها ان يحقق توحيد الالهية فيقول : لا اله الا انت .

فعلينا ان نحب ما يحب ، ونرضى ما يرضى ، ونأمر بما يأمر ، وننهى عما ينهى . فاذا كان ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(١١٨) فعلينا ان نحبهم ؛ ولاناله مراداتنا المخالقة لمحابه .

(عصمة الأنبياء)

والكلام في هذا المقام مبنى على « اصل » : وهو أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ، ولهذا وجب الايمان بكل ما أوتوه كما قال تعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ؛ لَا تَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(١١٩)

(١١٨) راجع سورة البقرة (٢/٢٢٢)

(١١٩) نفس السورة (٢/١٣٦-١٣٧)

وقال :

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾^(١٢٠)

وقال :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ
آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْ رُّسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾^(١٢١)

بخلاف غير الأنبياء فانهم ليسوا معصومين كاعصم الأنبياء ، ولو كانوا
أولياء الله ، ولهذا من سب نبيا من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء ، ومن سب
غيرهم لم يقتل .

وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة
والرسالة ؛ فان « النبي » هو المنبئ عن الله ، و« الرسول » هو الذى
ارسله الله تعالى ، وكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا ، والعصمة
فما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر فى ذلك خطأ باتفاق المسلمين .

(تفنييد قصة الغرانيق)

ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله
آياته ؟ هذا فيه قولان : والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك .

(١٢٠) ايضاً (١٧٧/٢)

(١٢١) ايضاً (٢٨٥/٢)

والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة
النجم بقوله : تلك الغرائق العلى ، وإن شفاعتهم لترتجى وقالوا : إن
هذا لم يثبت ، ومن علم أنه ثبت : قال هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم
ولم يلفظ به الرسول ﷺ ، ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضا ،
وقالوا في قوله :

﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ^(١٢٢) هو
حديث النفس .

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلا ثابتا
لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا
تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي
الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ،
لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ
آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(١٢٣)

فقالوا الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير
والحديث ، والقرآن يوافق ذلك فإن نسخ الله لما يلقي الشيطان واحكامه
آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته ، وتمييز الحق من الباطل حتى

(١٢٢) سورة الحج (٥٢/٢٢)

وللشيخ المحدث ناصر الدين الالباني رسالة مفيدة سماها «نصب المجانيق على
قصة الغرائق» .

(١٢٣) سورة الحج (٥٤-٥٢/٢٢)

لا تختلط آياته بغيرها ، وجعل مالقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم انما يكون اذا كان ظاهرا يسمعه الناس لباطنا في النفس والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ .

وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ وبُعده عن الهوى من ذلك النوع ، فانه اذا كان يأمر بامر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك ، فاذا قال عن نفسه ان الثانى هو الذى من عند الله وهو الناسخ وان ذلك المرفوع الذى نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق ، وهذا كما قالت عائشة رضى الله عنها^(١٢٤) :

« لو كان محمد كاتما شيئا من الوحي لكتّم هذه الآية ﴿ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ ^(١٢٥) » .

ألا ترى ان الذى يعظم نفسه بالباطل يريد ان ينصر كل ماقاله ولو كان خطأ ، فبيان الرسول ﷺ ان الله احكم آياته ونسخ ماالقيه الشيطان هو ادل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب ، وهذا هو المقصود بالرسالة فانه الصادق المصدوق ﷺ تسليما ، ولهذا كان تكذيبه كفرا محضا بلاريب .

واما العصمة في غير مايتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع ، هل هو ثابت بالعقل او بالسمع ؟ ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر او من بعضها ، ام هل العصمة انما هي الاقرار عليها لا في فعلها ؟ ام لايجب القول بالعصمة الا في التبليغ فقط ؟ وهل تجب العصمة من الكفر

(١٢٤) اخرجه البخارى في التوحيد(٨/١٧٥) ومسلم في الايمان(١/١٦٠ رقم ٢٨٨) والترمذى في التفسير(٥/٣٥٢ رقم ٣٢٠٧) واحمد في «المسند»(٦/٢٤١) وانظر «الدر المنثور»(٦/٦١٣) .

(١٢٥) سورة الاحزاب(٣٢/٣٧)

والذنوب قبل المبعث ام لا ؟ والكلام على هذا مبسوط في غير هذا
الموضع .

والقول الذى عليه جمهور الناس ، وهو الموافق للآثار المنقولة عن
السلف اثبات العصمة من الاقرار على الذنوب مطلقا ، والرد على من
يقول انه يجوز اقرارهم عليها ، وحجج القائلين بالعصمة اذا حررت انما
تدل على هذا القول .

وحجج النفاة لاتدل على وقوع ذنب اقر عليه الانبياء ، فان القائلين
بالعصمة احتجوا بأن التأسي بهم مشروع ، وذلك لايجوز الا مع تجويز
كون الأفعال ذنوبًا ، ومعلوم ان التأسي بهم انما هو مشروع فيما أُقِرُوا عليه
دون مأنهوا عنه ورجعوا عنه ، فأما ماأنسخ من الأمر والنهى فلايجوز
جعله مأمورا به ولامنهيا عنه ، فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه .

وكذلك مااحتجوا به من ان الذنوب تُنافى الكمال ، او انها ممن
عظمت عليه النعمة اقبح ، او انها توجب التنفير ، او نحو ذلك من
الحجج العقلية ، فهذا انما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع ، والا
فالتوبة النصوح التى يقبلهاالله يرفع بها صاحبها الى اعظم مما كان عليه ،
كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل
الخطيئة .

وقال آخر : لو لم تكن التوبة احب الأشياء اليه ، لما ابتلى بالذنوب
اكرم الخلق عليه .

وقد ثبت في الصحاح^(١٢٦) حديث التوبة :

« لله افرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا » الخ .

(١٢٦) أخرجه البخارى فى الدعوات (١٤٦/٧) ومسلم فى التوبة (٢١٠٤/٣ رقم ٢٧٤٧) من حديث
انس

وأخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» (الشعبة ٤٧) وراجع تخريجه فيه .

وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(١٢٧)

وقال تعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾^(١٢٨).

وقد ثبت في الصحيح^(١٢٩) حديث الذي يعرض الله صغار ذنوبه ويخفى عنه كبارها وهو مشفق من كبارها ان تظهر ، فيقول الله له :

« انى قد غفرتها لك وابدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول : اى رب ! ان لى سيئات لم اراها » .

اذا رأى تبديل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التى كان مشفقاً منها ان تظهر ، ومعلوم ان حاله هذه مع هذا التبديل اعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل .

وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير : ان العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ، يعمل الحسنة فيُعجب بها ويفتخرُ بها حتى تدخله النار ، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة .

وقد قال تعالى :

(١٢٧) سورة البقرة (٢/٢٢٢)

(١٢٨) سورة الفرقان (٢٥/٧٠)

(١٢٩) اخرجه مسلم فى الايمان (١/١٧٧ رقم ١٩٠) والترمذى فى صفة جهنم (٤/٧١٣ رقم ٢٥٩٦)

واحمد فى «المسند» (٥/١٥٧-١٧٠) والبيهقى فى «الاسماء والصفات» (٧٤) .

﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ
وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(١٣٠)

فغاية كل انسان ان يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله
عليهم .

وفي الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التي انزلت قبل القرآن مما
يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه .

والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية
والدهرية لنصوص «الأسماء والصفات» ونصوص «القدر» ونصوص «المعاد»
وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يعلم بالاضطرار انها
باطلة ، وانها من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، وهؤلاء يقصد احدهم
تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم ، ويريد الايمان بهم فيقع في الكفر بهم .

ثم ان العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والاجماع ، وهي « العصمة
في التبليغ » لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يَقْرؤون بموجب ما بَلَّغْتَهُ الأنبياء ،
وانما يقرون بلفظ حرفوا معناه ، أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون
الكتاب الا أماني ، والعصمة التي كانوا ادعوها لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها
ولا حاجة بهم اليها عندهم ، فانها متعلقة بغيرهم لا بما امروا بالايمان به ،
فيتكلم احدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله ، ويدع ما يجب عليه
من تصديق الأنبياء وطاعتهم ، وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل
الشقاوة قال تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَحْمِلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾^(١٣١) الآية .

(١٣٠) سورة الاحزاب (٧٣/٣٣)

(١٣١) سورة النور (٥٤/٢٤)

(توبة الأنبياء واستغفارهم)

والله تعالى لم يذكر في القرآن شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء الا
مقرونًا بالتوبة والاستغفار ، كقول آدم وزوجته :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(١٣٢)

وقول نوح :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ،
وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(١٣٣)

وقول الخليل عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ ﴾^(١٣٤)

وقوله :

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ
الدِّينِ ﴾^(١٣٥)

(١٣٢) سورة الاعراف (٢٣/٧)

(١٣٣) سورة هود (٤٧/١١)

(١٣٤) سورة ابراهيم (٤١/١٤)

(١٣٥) سورة الشعراء (٨٢/٢٦)

وقول موسى :

﴿ أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ
وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا
هَذَا إِلَيْكَ ﴾^(١٣٦)

وقوله :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾^(١٣٧)

وقوله :

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١٣٨)

وقوله تعالى عن داود :

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ
وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾^(١٣٩)

وقوله تعالى عن سليمان :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُنَبِّغِي لِأَحَدٍ مِّنْ
بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾^(١٤٠)

(١٣٦) سورة الاعراف(٧/١٥٥-١٥٦)

(١٣٧) سورة القصص(٢٨/١٦)

(١٣٨) سورة الاعراف(٧/١٤٣)

(١٣٩) سورة ص(٣٨/٢٤-٢٥)

(١٤٠) ايضا(٣٨/٣٥)

وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنباً فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار . بل قال :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾^(١٤١)

فاخبر انه صرف عنه السوء والفحشاء ، وهذا يدل على انه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء .

وأما قوله :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾^(١٤٢)

فالهم اسم جنس تحته «نوعان» كما قال الامام احمد الهم هَمَان : هم خطرات ، وهم إصرار .

وقد ثبت في الصحيح^(١٤٣) عن النبي ﷺ :

« ان العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، وإذا تركها لله كتبت له حسنة وان عملها كتبت له سيئة واحدة »

وان تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة .

(١٤١) سورة يوسف (٢٤/١٢)

(١٤٢) نفس الآية

(١٤٣) أخرجه البخاري في الرقاق (١٨٧/٧) ومسلم في الايمان (١١٨/١ رقم ١٣١) عن ابن عباس وأخرجه البيهقي في «شعب الايمان» (حديث رقم ٣٢٨) وانظر تخريجه فيه .

ويوسف عليه السلام هم ما تركه الله ، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لاخلاصه ، وذلك انما يكون اذا قام المقتضى للذنب وهو الهم ، وعارضه الاخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله .

فيوسف عليه السلام لم يصدر منه الا حسنة يثاب عليها ، وقال تعالى :

﴿ اِنَّ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا اِذَا مَسَّهُمْ طَائِفَةٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوْا فَاِذَا هُمْ مُبْصِرُوْنَ ﴾ ^(١٤٤)

وأما ما ينقل : من انه حل سراويله ، وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وانه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده ، وأمثال ذلك ، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ، وما لم يكن كذلك فانما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من اعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم ، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله ، لم ينقل من ذلك احد عن نبينا عليه السلام حرفاً واحداً .

(خطاء المفسرين)

وقوله :

﴿ وَمَا اُبْرِئُ نَفْسِيْ اِنَّ النَّفْسَ لَامَّارَةٌ بِالسُّوْءِ اَلَا
مَارَحِمَ رَبِّيْ ﴾ ^(١٤٥)

فن كلام امرأة العزيز ، كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينه ، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن ، حيث قال تعالى :

(١٤٤) سورة الاعراف (٢٠١/٧)

(١٤٥) سورة يوسف (٥٣/١٢)

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ
 قَالَ : أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَأَسْأَلُهُ مَابَالَ النَّسْوَةِ الَّتِي
 قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ، قَالَ
 مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ
 مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ
 حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
 الصَّادِقِينَ ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ
 لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَّحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴾ (١٤٦)

فهذا كله كلام امرأة العزيز ، ويوسف إذ ذاك في السجن ، لم يحضر
 بعد الى الملك ، ولا سمع كلامه ولا رآه ؛ ولكن لما ظهرت براءته في غيبته
 — كما قالت امرأة العزيز : ﴿ ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب ﴾ اى
 لم اخنه في حال مغيبه عني وان كنت في حال شهوده راودته — فحينئذ :

﴿ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ،
 فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (١٤٧)

وقد قال كثير من المفسرين ان هذا من كلام يوسف ، ومنهم من
 لم يذكر الا هذا القول ، وهو قول في غاية الفساد ، ولادليل عليه ؛ بل
 الادلة تدل على تقيضه ، وقد بسط الكلام على هذه الامور في غير هذا
 الموضع .

و (المقصود هنا) ان ماتضمنته « قصة ذى النون » مما يلام عليه كله
 مغفور بذله الله به حسنات ، ورفع درجاته ، وكان بعد خروجه من
 بطن الحوت وتوبته اعظم درجة منه قبل ان يقع ما وقع ، قال تعالى :

(١٤٦) ايضاً (١٢/٥٣-٥٢)

(١٤٧) ايضاً (١٢/٥٤)

﴿ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ
إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ لِّوَلَا أَنْ تَدَارِكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ
لَتُبْدَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ ﴾ ^(١٤٨)

وهذا بخلاف حال التقام الحوت فانه قال :

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ ^(١٤٩)

فاخبر انه في تلك الحال ملیم ، و « المليم » الذى فعل ما يلام عليه ،
فاللام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم ، فكانت حاله
بعد قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ارفع
من حاله قبل ان يكون ما كان ، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في
البداية ، والاعمال بخواتيمها .

والله تعالى خلق الانسان واخرجه من بطن امه لا يعلم شيئا ، ثم علّمه
فنقله من حال النقص الى حال الكمال ، فلا يجوز ان يعتبر قدر الانسان
بما وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال كماله ، ويونس عليه السلام
وغيره من الأنبياء في حال النهاية حالهم اكمل الاحوال .

ومن هنا غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين
فانهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين وتقصهم فغلطوا ؛
ولوا اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ، ورضى الرحمن ،
وزوال كل ما فيه نقص وملام ، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام ، حتى
استقر بهم القرار :

(١٤٨) سورة القلم (٦٨/٤٨-٥٠)

(١٤٩) سورة الصافات (٣٧/١٤٢)

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(١٥٠)

فاذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين والا فهل يجوز لما قل ان يعتبر حال احدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب .

ولو اعتبر ذلك لاعتبر احدهم وهو نطفة ثم علقه ، ثم مضغة ، ثم حين نفخت فيه الروح ، ثم هو وليد ، ثم رضيع ثم فطيم ، الى احوال آخر ؛ فعلم ان الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كمال المدح والتفضيل ، وتفضيله بها على كل صنف وجيل ؛ واذا فضل باعتبار المآل ، عند حصول الكمال .

(العبرة بالعاقبة في الأفضلية)

وما يظنه بعض الناس انه من ولد على الاسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ليس بصواب ؛ بل الاعتبار بالعاقبة وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل . فانه من المعلوم ان السابقين الاولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم افضل ممن ولد على الاسلام من اولادهم وغير اولادهم ؛ بل من عرف الشر وذاقه ، ثم عرف الخير وذاقه فقد تكون معرفته بالخير ومحبه له ، ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذوقهما كما ذاقهما ؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف انه شر ، فاما ان يقع فيه ، وإما ان لا ينكره كما انكره الذي عرفه .

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : انما تُنقض عرى الاسلام
عُرْوَةٌ عُرْوَةٌ اذا نشأ فى الاسلام من لم يعرف الجاهلية .

وهو كما قال عمر :

فان كمال الاسلام هو بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتقام ذلك
بالجهاد فى سبيل الله . ومن نشأ فى المعروف لم يعرف غيره ، فقد لا يكون
عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه ، ولا يكون عنده من الجهاد
لا هله ما عند الخبير بهم ، ولهذا يوجد الخبير بالشر واسبابه اذا كان حسن
القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره .

ولهذا كان الصحابة رضى الله عنهم اعظم ايماناً وجهاداً ممن بعدهم ،
لكمال معرفتهم بالخير والشر ، وكال محبتهم للخير وبغضهم للشر ، لما
علموه من حسن حال الاسلام والايمان والعمل الصالح ، وقبح حال
الكفر والمعاصى ، ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف احرص على
الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك . ولهذا يقال :

وَالضِدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ^(١٥١)

ويقال^(١٥٢) :

وَبِضِدِّهَا تَبَيَّنَ الْأَشْيَاءُ

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لست بخبٍ ،
ولا يَخْدَعْنِي الْخَبُّ .

(١٥١) هو عجز بيت صدره : ضِدَّانِ لما استجمعا حسناً .

منسوب للبحترى

(١٥٢) عجز بيت صدره : ونذيمهم وبهم عرفنا فضله .

وهو لأبى الطيب المتنبي ، راجع ديوانه (٢٢/١) .

فالقلب السليم المحمود هو الذى يريد الخير لا الشر ، وكال ذلك بان يعرف الخير والشر ، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به .

وليس المراد ان كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون اعلم بذلك واكره له ممن لم يذقه مطلقا ؛ فان هذا ليس بمُطَرَّد ، بل قد يكون الطبيب اعلم بالأمراض من المرضى ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام اطباء الأديان ، فهم اعلم الناس بما يُصلح القلوب ويُفسدها ، وان كان احدهم لم يذق من الشر ماذاقه الناس .

ولكن المراد ان من الناس من يحصل له ، بذوقه الشر من المعرفة به ، والنفور عنه ، والمحبة للخير اذا ذاقه مالا يحصل لبعض الناس ، مثل من كان مشركا او يهوديا او نصرانيا ، وقد عرف ما فى الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر ، ثم شرح الله صدره للاسلام ، وعرفه محاسن الاسلام ، فانه قد يكون ارغب فيه ، واكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والاسلام ، بل هو مُعَرَّض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا ، او مقلد فى مدح هذا وذم هذا .

ومثال ذلك من ذاك طعم الجوع ثم ذاق طعم الشبع بعده ، او ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده ، او ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده ، فان محبة هذا ورغبته فى العافية والأمن والشبع ، ونفوره عن الجوع والخوف والمرض اعظم ممن لم يُبْتَلْ بذلك ، ولم يعرف حقيقته .

وكذلك من دخل مع اهل البدع والفجور ، ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحا ، ورزقه الجهاد فى سبيل الله ، فقد يكون بيانه لحالهم ، وهجره لمساويهم ، وجهاده لهم اعظم من غيره .

قال نعيم بن حماد الخزاعى — وكان شديدا على الجهمية — انا شديد عليهم ، لانى كنت منهم^(١٥٣) .

(١٥٣) راجع «سير اعلام النبلاء» (٥٩٧/١٠) ، و«تاريخ بغداد» (٣٠٧/١٣) .

وقد قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١٥٤).

نزلت هذه^(١٥٥) الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب الله عليهم ، فهاجروا الى الله ورسوله ، وجاهدوا وصبروا .

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما من اشد الناس على الاسلام فلما اسما تقدا على من سبقهما الى الاسلام ، وكان بعض من سبقهما دونهما في الايمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله ، وكان عمر لكونه اكمل ايمانا واخلاصا وصدقا ومعرفة وفراصة ونورا ابعد عن هوى النفس واعلى همة في اقامة دين الله ، مقدا على سائر المسلمين ، غير ابى بكر رضى الله عنهم اجمعين .

وهذا وغيره مما يبين ان الاعتبار بكمال النهاية لا ينقص البداية .

وما يذكر في الاسرائيليات : « ان الله قال لداود : اما الذنب فقد غفرناه ، واما الود فلا يعود » فهذا لو عرفت صحته لم يكن شرعا لنا وليس لنا ان نبني ديننا على هذا ، فان دين محمد ﷺ في التوبة جاء بما لم يجرى به شرع من قبله ، ولهذا قال :

« انا نبي الرحمة ، وانا نبي التوبة »^(١٥٦)

وقد رُفِعَ به من الآصار والاغلال ما كان على من قبلنا .

(١٥٤) سورة النحل (١٦/١١٠) وفي الاصل «والذين هاجروا» .

(١٥٥) راجع «اسباب النزول» للواحدى (٢٨٨-٢٨٩) و«تفسير الطبرى» (١٤/١٢٣-١٢٤) .

(١٥٦) اخرج مسلم في «صحيحه» (٢/١٨٢٨) عن ابى موسى الاشعري قال :

(فضيلة التوبة)

وقد قال تعالى في كتابه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(١٥٧)

واخبر انه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب اعظم من فرح الفاقد لما يحتاج اليه من الطعام والشراب والمركب اذا وجدته بعد اليأس . فاذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته ، كيف يقال : انه لا يعود لمودته :

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَلَّامٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾^(١٥٨)

ولكن وده وحبه بحسب ما يتقرب اليه العبد بعد التوبة ، فان كان ما يأتي به من محبوبات الحق بعد التوبة افضل مما كان يأتي به قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة ، وان كان انقص كان الامر انقص ، فان الجزاء من جنس العمل ، وماربك بظلام للعبيد .

وقد ثبت في الصحيح^(١٥٩) عن النبي ﷺ انه قال :

« يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ »

= كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه اسماء فقال : «انا محمد ، واحمد ، والمقفي والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » .

واخرجه احمد في «مسنده» (٤٠٤/٤) والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٥٧/١)

(١٥٧) سورة البقرة (٢٢٢/٢)

(١٥٨) سورة البروج (١٦-١٤/٨٥)

(١٥٩) اخرجه البخاري في الرقاق من «صحيحه» (١٩٠/٧)

بالحرب ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَى الْبِغَاةِ حَتَّى أَحِبُّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ مَعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا : فَبِىْ يَسْمَعُ ، وَبِىْ يُبْصِرُ ، وَبِىْ يَبْطِشُ . . وَبِىْ يَمْشِي ، وَلَئِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّاهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَآكِرُهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ .

ومعلوم ان افضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والانصار ، وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان اعظم محبة ومودة ، وكلما تقربوا اليه بالنوافل بعد الفرائض احبهم وودهم .

وقد قال تعالى :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١٦٠)

نزلت في المشركين^(١٦١) الذين عادوا الله ورسوله مثل «اهل الاحزاب» كأبي سفيان بن حرب ، وأبي سفيان بن الحارث ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن ابي جهل ، وصفوان بن أمية ، وغيرهم . فانهم بعد معاداتهم لله ورسوله جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودة ، وكانوا في ذلك متفاضلين . وكان عكرمة وسهيل والحارث بن

(١٦٠) سورة الممتحنة (٧/٦٠)

(١٦١) راجع «اسباب النزول» (٤٤٩-٤٥٠) وانظر «تفسير ابن كثير» (٣٤٩/٤)

هشام أعظم مودة من ابي سفيان بن حرب ونحوه ، وقد ثبت في الصحيح^(١٦٢) :

« ان هند امرأة أبي سفيان أم معاوية قالت : والله يارسول الله ! ما كان على وجه الارض أهل خباء أحب الى ان يذلوها من أهل خيائك ، وقد أصبحت وما على وجه الأرض أهل خباء أحب الى ان يعزوها من أهل خيائك فذكر النبي ﷺ لها نحو ذلك . »

(التوبة وسيلة للمغفرة والمودة)

ومعلوم ان المحبة والمودة التي بين المؤمنين انما تكون تابعة لحبهم لله تعالى ، فان اوثق عرى الايمان الحب في الله ، والبغض في الله ، فالحب لله من كمال التوحيد ، والحب مع الله شرك ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(١٦٣)

فتلك المودة التي صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين عادوهم من المشركين انما كانت مودة لله ومحبة لله ومن احب الله احبه الله ، ومن ود الله وده الله ، فعلم ان الله احبهم وودهم بعد التوبة ، كما احبوه وودوه ، فكيف يقال : ان التائب انما تحصل له المغفرة دون المودة ؟ ! .

(١٦٢) رواه البخارى في مناقب الانصار (٢٣٢/٤) وفي الايمان والنذور (٢٢٠/٧) وفي الاحكام (١٠٩/٨) ومسلم في الاقضية (١٣٣٩/٢ رقم ٩٨) والبيهقى في «دلائل النبوة» (١٠٠/٥) .

(١٦٣) سورة البقرة (١٦٥/٢)

وان قال قائل : اولئك كانوا كفارًا ، ولم يعرفوا ان ما فعلوه محرم ، بل كانوا جهالا ، بخلاف من علم ان الفعل محرم واتاه .

قيل : الجواب من وجهين :

احدها : انه ليس الأمر كذلك ، بل كان كثير من الكفار يعلمون ان محمدا رسول الله ، ويعادونه حسداً وكبراً وابوسفیان قدسمع من اخبار نبوة النبي ﷺ ما لم يسمع غيره ، كما سمع من امية بن ابى الصلت ، وما سمعه من هرقل ملك الروم^(١٦٤) ، وقد اخبر عن نفسه انه لم يزل موقناً ان امر النبي ﷺ سيظهر حتى ادخل الله عليه السلام ، وهو كاره له ، وقد سمع منه عام اليرموك^(١٦٥) وغيره ما دل على حسن اسلامه ومحبة الله ورسوله بعد تلك العداوة العظيمة .

وقد قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يَضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(١٦٦)

فاذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهم ، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصا بمن كان كافرا ، وقد قال تعالى :

(١٦٤) قصة مقابلة ابى سفيان مع هرقل ومحدثته معه اخرجها البخارى في «صحيحه» في الايمان (٧-٥/١) .

(١٦٥) انظر «الاصابة» (١٧٣/٢)

(١٦٦) سورة الفرقان (٧٠-٦٨/٢٥)

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(١٦٧)

قال ابوالمعالية : سألت أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالوا
لى : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من
قريب^(١٦٨)

الوجه الثانى : ان ما ذكر من الفرق بين تائب وتائب فى محبة الله
تعالى للتائبين فرق لا أصل له ، بل الكتاب والسنة يدل على ان الله يحب
التوابين ، ويفرح بتوبة التائبين ، سواء كانوا عالمين بأن ما أتوه ذنباً أو
لم يكونوا عالمين بذلك .

(ما يجب على التائب)

ومن علم ان ما أتاه ذنب ثم تاب فلا بد أن يبدل وصفه المذموم
بالمحمود ، فاذا كان يبغض الحق فلا بد ان يحبّه ، واذا كان يحبُّ الباطل
فلا بد ان يبغضه . فما يأتى به التائب من معرفة الحق ومحبة والعمل به ،
ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التى يحبها الله تعالى
ويرضاها ، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتى به العبد من محابته ، فكل من
كان اعظم فعلا محبوب الحق كان الحق اعظم محبة له ، وانتقاله من
مكروه الحق الى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل ، وقوة
حب ما انتقل اليه من حب الحق ، فوجب زيادة محبة الحق له ، ومودته

(١٦٧) سورة النساء (١٧/٤)

(١٦٨) اخرج الطبرى فى «تفسيره» (٢٩٨/٤)

اياه ، بل يبدل الله سيئاته حسنات لانه بدّل صفاته المذمومة بالمحمودة
فَيُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ ، فان الجزاء من جنس العمل ، وحينئذ فاذا
كان اتيان التائب بما يحبه الحق اعظم من اتيان غيره كانت محبة الحق له
اعظم واذا كان فعله لما يوده الله منه اعظم من فعله له قبل التوبة كانت
مودعة الله له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة ، فكيف يقال الود
لا يعود .

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول : ان الله لا يبعث نبيا الا من كان
معصوما قبل النبوة ، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم ، وكذلك
من قال انه لا يبعث نبيا الا من كان مومنا قبل النبوة ، فان هؤلاء
توهموا ان الذنوب تكون نقصا وان تاب التائب منها ، وهذا منشأ غلطهم
فمن ظن ان صاحب الذنوب مع التوبة النصح يكون ناقصا فهو غالط
غلطاً عظيماً ، فان الذم والعقاب الذي يلحق اهل الذنوب لا يلحق
التائب منه شيء اصلاً ، لكن ان قدّم التوبة لم يلحقه شيء ، وان أخر
التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب
حاله .

(المبادرة بالتوبة)

والانبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل
يسارعون اليها ، ويسابقون اليها ، لا يؤخّرون ولا يصرون على الذنب بل
هم معصومون من ذلك ، ومن أخر ذلك زمناً قليلاً كفر الله ذلك بما
يبتليه به كما فعل بذي النون عليه السلام هذا على المشهور ان القاءه كان بعد
النبوة ، واما من قال ان القاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج الى هذا .

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون افضل ممن لم يقع في الكفر
والذنوب ، واذا كان قد يكون افضل ، فالافضل احق بالنبوة ممن ليس

مثله في الفضيلة ، وقد اخبر الله عن اخوة يوسف بما اخبر من ذنوبهم وهم
الاسباط الذين نبأهم الله تعالى وقد قال تعالى :

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ (١٦٩)

فأمن لوط لابراهيم عليه السلام ثم ارسله الله تعالى الى قوم لوط
وقد قال تعالى في قصة شعيب :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ
فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ، قَدْ افْتَرَيْنَا
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ
مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا
وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١٧٠)

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ
خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (١٧١)

واذا عرف ان الاعتبار بكمال النهاية ، وهذا الكمال انما يحصل بالتوبة
والاستغفار ، ولا بد لكل عبد من التوبة وهي واجبة على الأولين
والآخرين ، كما قال تعالى :

(١٦٩) سورة العنكبوت (٢٩/٢٦)

(١٧٠) سورة الاعراف (٧/٨٨-٨٩)

(١٧١) سورة ابراهيم (١٤/١٣-١٤)

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١٧٣)

(توبة الانبياء)

وقد أخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدها الى خاتم المرسلين
محمد ﷺ ، وآخر ما نزل عليه — او من آخر ما نزل عليه — قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ
فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ،
إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾^(١٧٣)

وفي الصحيحين^(١٧٤) عن عائشة رضي الله عنها ان النبي ﷺ كان يكثر
ان يقول في ركوعه وسجوده :

« سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » يتأول
القرآن .

وقد انزل الله عليه قبل ذلك :

(١٧٢) سورة الاحزاب (٧٣/٣٣)

(١٧٣) سورة النصر (١١٠)

(١٧٤) أخرجه البخارى في الأذان (١٩٩/١) وفي التفسير (٩٣/٦) ومسلم في
الصلاة (٣٥٠/١ رقم ٤٨٤) وابوداود في الصلاة (٨٧٧ رقم ٥٤٦/١) والنسائي (٢٢٠، ٢١٩/٢) وابن
ماجة (٢٨٧/١ رقم ٨٨٩) واحمد في «المسند» (١٩٠، ٤٩، ٤٣/٦) .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ
قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ
رَحِيمٌ ﴾^(١٧٥)

وفي صحيح البخارى^(١٧٦) عن النبي ﷺ انه كان يقول :

« يا ايها الناس توبوا الى ربكم فوالذى نفسى بيده
انى لأستغفر الله واتوب اليه فى اليوم اكثر من سبعين
مرة » .

وفي صحيح مسلم^(١٧٧) عن الاغر المزنى عن النبي ﷺ انه قال :

« اِنَّهُ لَيُفَانُ عَلَى قَلْبِي . وَاِنِّى لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فى اليوم
مائة مرة » .

وفي السنن^(١٧٨) عن ابن عمر انه قال : كنا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ فى
المجلس الواحد يقول :

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ اِنَّكَ اَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ »
مائة مرة .

-
- | | |
|-------|--|
| (١٧٥) | سورة التوبة(١١٧/٩) |
| (١٧٦) | فى الدعوات(١٤٥/٧) |
| (١٧٧) | فى الذكر(٢٠٧٥/٣) وانظر تخريجه فى «شعب الايمان» للبيهقى(الشعبة ٤٧) |
| (١٧٨) | اخرجه ابوداود فى الصلاة(١٧٨/٢) رقم(١٥١٦) والترمذى فى الدعوات(٤٩٤/٥) رقم(٣٤٣٤) وابن ماجه فى الأدب(١٢٥٣/٢) رقم(٢٨١٤) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة»(رقم ٤٥٨) .
واخرجه البخارى فى «الأدب المفرد»(١٦٢) رقم(٦١٨) وابن حبان فى «صحيحه»(٢٤٥٩) |

وفي الصحيحين^(١٧٩) عن ابي موسى عن النبي ﷺ انه كان يقول :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَاسْرَافِي فِي أَمْرِي ،
وما انتَ اعلمُ به مِنِّي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي
وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي
ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ وما انتَ
اعلمُ به مِنِّي . انتَ المُقَدِّمُ وانتَ المؤخِّرُ ، وانتَ على
كلِّ شيءٍ قديرٌ »

وفي الصحيحين^(١٨٠) عن ابي هريرة انه قال : يا رسول الله ارايت
سكوتَكَ بين التكبير والقراءة ماذا تقول ؟ قال : اقول :

« اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، اللَّهُمَّ تَقْنِيْ مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنْقِي
الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ السَّدَنَسِ ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ
خَطَايَايَ بِالْثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ » .

وفي صحيح مسلم^(١٨١) وغيره انه كان يقول : نحو هذا اذا رفع راسه من
الركوع .

(١٧٩) احرجه البخارى في الدعوات (١٦٦/٧) ومسلم في الذكر (٢٠٨٧/٣ رقم ٧٠)

(١٨٠) احرجه البخارى في الآذان (١٨٠/١) ومسلم في المساجد (٤١٩/١ رقم ١٤٧)

واحرجه ايضا اسوداود في الصلاة (٤٩٣/١ رقم ٧٨١) والسنائي (١٢٩/٢) وابن
ماحة (٢٦٤/١ رقم ٥٠٨) واحد (٤٩٤/٢)

(١٨١) اخرج مسلم (٣٤٦-٣٤٧ رقم ٢٠٤) عن عبدالله بن ابي اوفى ان النبي ﷺ كان يقول .

اللهم لك الحمد ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم
طهّرني بالثلج والبرد والماء البارد ، اللهم طهّرني من الدنوب والخطايا كما ينقى
التوب الأبيض من الوسخ » واهرجه احمد في «المسند» (٣٥٤/٤)

وفي صحيح مسلم^(١٨٢) عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه كان يقول في دعاء الاستفتاح :

« اللهم ! انتَ الْمَلِكُ لا الهَ اِلا انتَ ، انتَ رَبِّي وانا عبدُكَ ، ظلمتُ نَفْسِي وعملتُ سوءاً فاغْفِرْ لِي فانه لا يغْفِرُ الذُّنُوبَ اِلا انتَ ، واهْدِنِي لأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا اِلا انتَ ، واضْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا اِلا انتَ » .

وفي صحيح مسلم^(١٨٣) عن النبي ﷺ انه كان يقول في سجوده :

« اللهم ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّةً وَجِلَّةً ، علانِيَتَهُ وسِرَّهُ ، اَوَّلَهُ وَاخِرَهُ » .

وفي السنن^(١٨٤) عن علي ان النبي ﷺ اتي بدابة ليركبها وانه حمد الله وقال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ
وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾

ثم كبره وحمده ثم قال :

« سُبْحَانَكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغْفِرْ لِي فانه لا يغْفِرُ الذُّنُوبَ

(١٨٢) راجع التعليق رقم (٤٠)

(١٨٣) في كتاب الصلاة (٣٥٠/١) رقم (٢١٦) عن ابي هريرة .

واخرجه ابوداود (٥٤٧/١) رقم (٨٧٨) .

(١٨٤) اخرجه ابوداود في الجهاد (٣/٧٧) رقم (٢٦٠٢) والترمذي في الدعوات (٥٠١/٥) رقم (٣٤٤٦)

والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٠٢) وابن حبان في

«صحيحه» (٢٣٨٠، ٢٣٨١ - موارد) والحاكم في «المستدرک» (٩٨-٩٩) وصححه .

والبيهقي في «السنن» (٢٥٢/٥) .

الا انت ، ثم ضحك ! وقال ان الرب يعجب من عبده
اذا قال اغفرلى ، فانه لا يغفر الذنوب الا انت ، يقول
علم عبدي انه لا يغفر الذنوب الا انا .

وقد قال تعالى :

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾^(١٨٥)

وقال :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾^(١٨٦)

وثبت في الصحيحين^(١٨٧) في حديث الشفاعة :

« ان المسيح يقول : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له
ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

وفي الصحيح^(١٨٨) :

« ان النبي ﷺ كان يقوم حتى ترم قدماه ، فيقال
له : اتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
وما تأخر ؟ قال افلا اكون عبدا شكورا » .

(١٨٥) سورة محمد (١٩/٤٧)

(١٨٦) سورة الفتح (٢-١/٤٨)

(١٨٧) حاءت هذه الحملة في حديث اس احرجه البخارى في التوحيد (١٧٣/٨) ومسلم في
الايمان (١٨٠/١ رقم ١٩٣) واهرجه البيهقي في «شعب الايمان» (رقم ٣٠٣) وراجع تخريجه
هاك

(١٨٨) احرجه البخارى في التفسير من حديث المعيرة وعائشة (٤٤/٦)

ورواه البيهقي في «شعب الايمان» (الشعبة ٣٣)

ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة والاثر في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة .

(صدور الذنب من الانبياء)

لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف في هذا الباب . وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها انها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه . كتأويلهم قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) المتقدم ذنب آدم والمتأخر ذنب امته وهذا معلوم البطلان ويدل على ذلك وجوه :

(احدها) أن آدم قد تاب الله عليه قبل ان ينزل إلى الأرض فضلاً عن عام الحديبية الذي انزل الله فيه هذه السورة قال تعالى :

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾^(١٨٩)

وقال :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(١٩٠)

وقد ذكر انه قال :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(١٩١)

(١٨٩) سورة طه (١٢١/٢٠-١٢٢)

(١٩٠) سورة البقرة (٣٧/٢)

(١٩١) سورة الاعراف (٢٣/٧)

و (الثاني) ان يقال : فأدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج ان يغفر له ذنبه عند المنازع فانه نبي ايضاً ، ومن قال : إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما .

الوجه (الثالث) ان الله لا يجعل الذنب ذنباً لمن لم يفعله فانه هو القائل :

﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۖ ﴾^(١٩٢)

فمن الممتنع ان يضاف الى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو امته أو غيرها . وقد قال تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَحْمِلٌ وَعَلَيْكُمْ مَاحِمَاتُكُمْ ۖ ﴾^(١٩٣)

وقال تعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۖ ﴾^(١٩٤)

ولوجاز هذا الجاز ان يضاف الى محمد ذنوب الأنبياء كلهم ، ويقال : إن قوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۖ ﴾^(١٩٥)

المراد ذنوب الأنبياء وامهم قبلك ، فانه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم ، وهو سيد ولد آدم ، وقال :

(١٩٢) سورة فاطر (١٨/٣٥)

(١٩٣) سورة النور (٥٤/٢٤)

(١٩٤) سورة النساء (٨٤/٤)

(١٩٥) سورة الفتح (٢/٤٨)

« انا سيد ولد آدم ولا فخر وآدم فمن دونه تحت لوائى
يوم القيامة ، انا خطيب الأنبياء إذا وفدوا ،
وإمامهم إذا اجتمعوا »^(١٩٦)

وحينئذٍ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه الى محمد ، بل تجعل ذنوب الأولين
والآخرين على قول هؤلاء ذنوباً له . فان قال : ان الله لم يعمر ذنوب
جميع الامم ، قيل : وهو ايضاً لم يغفر ذنوب جميع امته .

الوجه (الرابع) انه قدميز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله :

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾^(١٩٧)

فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنباً له .

(١٩٦) لم احده بهذا اللفظ وروى الترمذى عن اس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ

انا اول الناس حروخاً اذا نعتوا ، وانا حطيمهم اذا وفدوا ، وانا مسترهم اذا ايسوا ،
لواء الحمد يومئذ بيدي ، وانا اكرم ولد آدم على رنى ولا فخر

وقال ابو عيسى هذا حديث حسن عريب (٥/٥٨٥ رقم ٢٦١٠)

واخرجه السيهاقى فى «الدلائل» (٥/٤٨٤) وذكره الالى فى «صعيف الجامع
الصغير» (١٤٠٦) وروى الترمذى عن ائى سعيد (٥/٥٨٧ رقم ٣٦١٥) قال قال رسول الله ﷺ

«اناسيد ولد آدم يوم القيامة ، وييدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نى يومئذ آدم
من سواء الا تحت لوائى وانا اول من تستق عنه الارض ولا فخر»

واخرجه احمد (٢/٣) واس ماحه (٢/١٤٤٠ رقم ٤٣٠٨) وراح «الصحيحة» (١٥٧١)

واخرج الترمذى ايضاً (٥/٥٨٦ رقم ٣٦١٣) عن ائى بن كعب قال قال رسول الله ﷺ

«ادا كان يوم القيامة كست امام السيين وحطيمهم ، وصاحب شفاعتهم ولا فخر»

ورواه احمد (٥/١٣٨، ١٣٧) واس ماحه (٢/١٤٤٣ رقم ٤٣١٤) والحاكم (٢/٧٨/٤٠٧١)

(١٩٧) سورة محمد (١٩/٤٧)

الوجه (الخامس) انه ثبت في الصحيح^(١٩٨) ان هذه الآية لما نزلت قال الصحابة يا رسول الله ! هذا لك فما لنا فأنزل الله :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾^(١٩٩)

فدل ذلك على ان الرسول والمؤمنين علموا ان قوله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ مختص به دون امته .

الوجه (السادس) ان الله لم يغفر ذنوب جميع امته بل قد ثبت ان من امته من يعاقب بذنوبه اما في الدنيا واما في الآخرة ، وهذا مما تواتر به النقل واخبر به الصادق المصدوق واتفق عليه سلف الامة وائمتها ، وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصىه الا الله ، وقد قال الله تعالى :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يُعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾^(٢٠٠)

والاستغفار والتوبة قديكونان من ترك الافضل . فمن نقل الى حال افضل مما كان عليه قديتوب من الحال الاول ؛ لكن الذم والوعيد لا يكون الا على ذنب .



(١٩٨) أخرجه البخارى في المغازى (٦٦/٥) ومسلم باختصار في الجهاد (١٤١٣/٢) رقم (٩٧)
وأخرجه الترمذى (٣٨٥/٥-٣٨٦ رقم ٣٢٦٣) وأحمد (١٢٢/٣، ١٣٤، ١٧٣، ١٩٧، ٢١٥، ٢٥٢)
وابو يعلى في «مسنده» (٣٠٨/٥ رقم ٢٩٣٢، ٣٨٥ رقم ٤٧٢، ٣٠٤ رقم ٤٧٢، ٣٢٠ رقم ٢١/٦، ٣٢٥ رقم ٣٢٥٢)
والطبرى في «تفسيره» (٦٩/٢٦) والواحدى في «اسباب النزول» (٤٠٤-٤٠٥) والبيهقى في «السنن» (٢٢٢/٩) .

(١٩٩) سورة الفتح (٤/٤٨)

(٢٠٠) سورة النساء (٤/١٢٣)

فصل (لا بد للمغفرة من التوبة)

وأما قول السائل : هل الاعتراف بالخطيئة بمجرد مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربات الصادرة عنها ، أم يحتاج الى شيء آخر ؟ .

فجوابه : ان الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها ، فان الشرك لا يغفره الله الا بتوبة ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(١)

في موضعين من القرآن ومادون الشرك فهو مع التوبة مغفور ، وبدون التوبة معلق بالمشيئة . كما قال تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾^(٢)

(١) سورة النساء (٤/٤٨، ١١٦)

(٢) سورة الزمر (٣٩/٥٢)

فهذا في حق التائبين ، ولهذا عمم واطلق ، وحتم انه يغفر الذنوب جميعا ، وقال في تلك الآية : ﴿ وَيَغْفِرْ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فخص مادون الشرك وعلقه بالمشيئة فاذا كان الشرك لا يغفر الا بتوبة ، وأما مادونه فيغفره الله للتائب ، وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء .

فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد ان كان متضمنا للتوبة أوجب المغفرة ، واذا غفر الذنب زالت عقوبته ، فان المغفرة هي وقاية شر الذنب .

ومن الناس من يقول الغُفْرُ : الستر ، ويقول : انما سمي المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر ، وتفسير اسم الله الغفار بانه الستار ، وهذا تقصير في معنى الغفر ، فان المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب فمن غُفِرَ ذنبه لم يعاقب عليه ، واما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن ، ومن عُوقِبَ على الذنب باطنا او ظاهرا فلم يغفر له ، وانما يكون غفران الذنب اذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب .

وأما اذا ابتلى مع ذلك بما يكون سببا في حقه لزيادة اجره فهذا لا ينافي المغفرة .

وكذلك اذا كان من تمام التوبة ان ياتي بحسنات يفعلها ، فان ما يشترط في التوبة من تمام التوبة ، وقد يظن الظان انه تائب ولا يكون تائبا بل يكون تاركا ، والتارك غير التائب ، فانه قد يُعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله او المقتضى لعجزه عنه ، او تنتفى ارادته له بسبب غير ديني ، وهذا ليس بتوبة . بل لا بد من ان يعتقد انه سيئة ويكره فعله لنهى الله عنه ويدعه لله تعالى ، لالرغبة مخلوق ولالرهبة مخلوق ، فان التوبة من اعظم الحسنات ، والحسنات كلها يُشترط فيها الاخلاص لله وموافقة امره ، كما قال الفضيل بن عياض^(٣) في قوله :

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التيمي (م ١٨٧هـ)

﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾^(٤)

قال اخلصه واصوبه ، قالوا يا ابا علي ! ما اخلصه واصوبه ؟ قال : انّ العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص ان يكون لله ، والصواب ان يكون على السنة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا .
وبسط الكلام في التوبة له موضع آخر .

(الاعتراف فقط لا يكفي)

وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا في نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه ، وهو كالذى يسأل الله تعالى ان يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه ، وهذا يأس من رحمة الله ، ولا يقطع بالمغفرة له فانه داع دعوة مجردة ، وقد ثبت في الصحيحين^(٥) عن النبي ﷺ انه قال :

« ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة »

= من كبار الزهاد ومشايخ الصوفية

له ترجمته في «طبقات الصوفية» (٤-١١) «الخليّة» (٨٤/٨-١٤٠) و«السير» (٤٤٢-٤٢١/٨)

وانظر قوله في «الخليّة» (٩٥/٨) .

(٤) سورة الملك (٢/٦٧)

(٥) لم يخرجاه بهذا اللفظ بل عندهما من حديث ابي هريرة «ستجاب لاحدكم ما لم يعجل ،

يقول دعوت فلم يستجب لي» (البخارى في الدعوات ١٥١/٧؛ ومسلم في

رحم الا كان بين احدي ثلاث : اما ان يُعَجَّلَ له
دعوته ، واما ان يُدَخَّرَ له من الجزاء مثلها ، واما
ان يصرف عنه من الشرّ مثلها ، قالوا يا رسول الله اذا
نُكِّثَ . قال : الله اكثر .

فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة واذا لم تحصل ، فلا بد ان يحصل
معه صرف شر آخر او حصول خير آخر ، فهو نافع كما ينفع كل دعاء .

وقول من قال من العلماء الاستغفار مع الاصرار توبة الكذابين ، فهذا
اذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة او يدّعي ان استغفاره توبة ،
وانه تائب بهذا الاستغفار فلا ريب انه مع الاصرار لا يكون تائباً ، فان
التوبة والاصرار ضدان : الاصرار يضاد التوبة ، لكن لا يضاد الاستغفار

= الذكر ٢٠٩٥/٣ رقم ٩٠-٩١) وفي لفظ عند مسلم (رقم ٩٢) «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم
ولا قطيعة رحم ما لم يستعجل . قيل يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول : دعوت
ودعوت فلم ار يستجيب لي ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»

نعم روى الترمذي في الدعوات من «جامعه» (٥٦٦/٥ رقم ٣٥٧٣) عن عبادة بن الصامت ان
رسول الله ﷺ قال : «ما على الارض مسلم يدعو الله بدعوة الا اياه الله او صرف
عنه من سوء مثلها ما لم يدع باثم او قطيعة رحم» فقال رجل من القوم اذا نكث .
قال : «الله اكثر» .

واخرج احمد في «المسند» (١٨/٣) عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله
ﷺ :

«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه الله بها احدي ثلاث
اما ان تعجل له دعوته ، واما ان يدخرها له في الآخرة ، واما ان يصرف عنه من سوء
مثلها» . قالوا : اذا نُكِّثَ . قال : «الله اكثر» .

واخرجه ابو يعلى في «مسنده» (٢٩٦/٢ رقم ١٠١٩) والحاكم (٤٩٣/١) وصححه ووافقه الذهبي .
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٨/١٠-١٤٩) وقال : رواه احمد وابو يعلى والبخاري
والطبراني في «الاوسط» . ورجال احمد وابو يعلى واحد اسناد البخاري رجاله
رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة .

وراجع «فتح الباري» (٩٥/١١-٩٦) .

بدون التوبة .

وقول القائل : هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددة ام لا بد من استحضار جميع الذنوب ؟

فجواب هذا مبنى على اصول :

(احدهما) ان التوبة تصح من ذنب مع الاصرار على ذنب آخر اذا كان المقتضى للتوبة من احدهما اقوى من المقتضى للتوبة من الآخر ، او كان المانع من احدهما اشد ، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف .

وذهب طائفة من اهل الكلام كأبي هاشم^(٦) الى ان التوبة لا تصح من قبيح مع الاصرار على الآخر ، قالوا : لأن الباعث على التوبة ان لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة ، والخشية مانعة من جميع الذنوب لامن بعضها ، وحكى القاضى ابو يعلى^(٧) وابن عقيل^(٨) هذا رواية عن احمد ،

(٦) ابو هاشم ، عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب الجبائي (م ٣٢١هـ)

عالم بالكلام ، من كبار المعتزلة . له آراء انفرد بها . وتبعته فرقة سميت «البهشية» وله مصنفات .

راجع «تاريخ بغداد» (٥٥/١١) «وفيات الاعيان» (١٨٢/٣) «البداية والنهاية» (١٧٦/١١) «ميزان الاعتدال» (١٣١/٢) «الفرق بين الفرق» (١٦٩) .

(٧) القاضى ابو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن احمد البغدادي ، الحنبلي (م ٤٥٨هـ)

الامام العلامة ، شيخ الحنابلة ، صاحب التصانيف المفيدة في المذهب . انتهت اليه الامامة في الفقه ، وكان عالم العراق في زمانه مع معرفة لعلوم القرآن وتفسيره .

له ترجمة في «تاريخ بغداد» (٢٥٦/٢) «طبقات الحنابلة» (١٩٣/٢-٢٣٠) «السير» (٨٩/١٨-٩٠) «الوافي» (٨-٧/٣) «البداية والنهاية» (٩٤/١٢-٩٥) «شذرات الذهب» (٣٠٦/٣-٣٠٧) .

(٨) ابن عقيل ، ابو الوفاء على بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبدالله البغدادي (م ٥١٣هـ)

الامام العلامة ، الحنبلي المتكلم ، صاحب التصانيف . كانه يتوقد ذكاء ، وكان بحر معارف وكثر فضائل ، لم يكن له نظير في زمانه .

لأن المروذي^(٩) نقل عنه انه سئل عن تاب من الفاحشة وقال : لومرضت لم أعذ لكن لا يدع النظر ، فقال احمد : اى توبة ذه ؟ قال جرير بن عبدالله سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال :

« اصرف بصرَكَ »^(١٠)

والمعروف عن احمد وسائر الائمة هو القول بصحة التوبة ، واحمد في هذه المسألة انما اراد ان هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقا ، لم يرد ان ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر ، فان نصوصه المتواترة عنه واقواله الثابتة تنافي ذلك ، وحمل كلام الامام على ما يصدق بعضه بعضا اولى من حمله على التناقض ، لاسيما اذا كان القول الآخر

= قال ابن الاثير : كان قد اشتغل بمذهب المعتزلة في حديثه على بن الوليد ، فاراد الخنابلة قتله ، فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم اظهر التوبة .

له ترجمة في «طبقات الخنابلة» (٢٥٩/٢) «الكامل» في التاريخ (٥٦١/١٠) «السير» (٤٥١-٤٤٣/١٩) «الميزان» (١٤٦/٣) «لسان الميزان» (٢٤٤-٢٤٣/٤) «ذيل طبقات الخنابلة» (١٦٥-١٤٢/١) .

(٩) المروذي = نسبة الى مَرَوْ الرُّوذ ، بلدة حسنة مبنية على وادى مرو . والوادي بالعجمية «رود» فركبوا عن اسم البلد الذى ماؤه فى هذا الوادى والبلد اسما وقالوا «مرو الروذ» والنسبة اليها «المرو الروذى» ويقال «المروذى» للتخفيف .

وهو ابوبكر احمد بن محمد الحجاج بن عبدالعزيز (م ٢٧٥هـ)

صاحب الامام احمد ، والمقدم من اصحابه لورعه وفضله . وكانت امه مَرَوِذِيَّة وابوه خوارزميا . روى عن الامام مسائل كثيرة .

ترجمته فى «تاريخ بغداد» (٤٢٥-٤٢٣/٤) «الأنساب» (٢٠٢-٢٠١/١٢) «طبقات الخنابلة» (٦٣-٥٦/١) «التذكرة» (٦٣٣-٦٣١/٢) «السير» (١٧٦-١٧٣/١٣) «الوافى» (٣٩٣/٧) «شذرات» (١٦٦/٢) .

(١٠) رواه ابوداود فى النكاح (٦٠٩/٢ رقم ٢١٤٨) واحمد فى «المسند» (٣٦١/٤)

واخرجه مسلم فى الأدب (١٦٩٩/٢ رقم ٤٥) والترمذى فى الآداب (١٠١/٥ رقم ٢٧٧٦)

واحمد فى «المسند» (٣٥٨/٤) بلفظ «فامرني ان اصرف بصرى» .

مبتدعا لم يعرف عن احد من السلف ، واحمد يقول : إياك ان تتكلم في مسألة ليس لك فيها امام ، وكان في المحنة يقول : كيف أقول ما لم يُقل ؟ واتباع احمد للسنة والآثار وقوة رغبته في ذلك ، وكراهته لخلافه من الامور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة .

وماذكروه من ان الخشية توجب العموم .

فجوابه انه قد يعلم قبح أحد الذنوب دون الآخر ، وانما يتوب مما يعلم قبحه .

و(ايضا) فقد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه في احدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك ، كمن ادى بعض الواجبات دون بعض ، فان ذلك يقبل منه .

ولكن المعتزلة لهم اصل فاسد وافقوا فيه الخوارج في الحكم وان خالفوهم في الاسم ، فقالوا : ان اصحاب الكبائر يُخلّدون في النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها ، وعندهم يمتنع ان يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه ، ولهذا يقولون : بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة .

واما الصحابة واهل السنة والجماعة فعلى ان اهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم ، وان الكبيرة الواحدة لا تُحبط جميع الحسنات ، ولكن قد يُحبط ما يقابلها عند اكثر اهل السنة ، ولا يحبط جميع الحسنات الا الكفر ، كما لا يحبط جميع السيئات الا التوبة ، فصاحب الكبيرة اذا أتى بحسنات يبتغى بها رضا الله أثابه الله على ذلك ، وان كان مستحقا للعقوبة على كبريته .

وكتاب الله عزوجل يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضا ، وبين حكم الكفار في الاسماء والأحكام ، والسنة المتواترة عن النبي ﷺ واجماع الصحابة يدل على ذلك ، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

وعلى هذا تنازع الناس في قوله :

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١١)

فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة الا من اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة ، وعند المرجئة انما يتقبل من اتقى الشرك ، فجعلوا اهل الكبائر داخلين في اسم «المتقين» ، وعند اهل السنة والجماعة يتقبل العمل من اتقى الله فيه فعمله خالصا لله موافقا لأمر الله ، فمن اتقاه في عمل تقبله منه ، وان كان عاصيا في غيره ، ومن لم يتقّه فيه لم يتقبله منه وان كان مطيعا في غيره .

(التوبة من بعض الذنوب دون بعض تصحّ)

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض اذا لم يكن المتروك شرطا في صحة المفعول كالايمان المشروط في غيره من الاعمال ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَقَىٰ لَهَا سَفِيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
قَالَ لَكَ كَانَ سَفِيَهُمْ مَّشْكُورًا ﴾^(١٢)

وقال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُخَيِّئَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾^(١٣)

(١١) سورة المائدة (٢٧/٥)

(١٢) سورة الاسراء (١٩/١٧)

(١٣) سورة النمل (٩٧/١٦) وفي الاصل «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنشى...»

وقال :

﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قِيَمَتْ وَهُوَ كَافِرٌ
فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(١٤)

(هل الكافر يحتاج الى توبة ؟)

(الاصل الثانى) ان من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فان التوبة انما تقتضى مغفرة ماتاب منه ، أما ما لم يتب منه فهو باقٍ فيه على حكم من لم يتب ، ولاعلى حكم من تاب ، وما علمت فى هذا نزاعا الا فى الكافر اذا اسلم ، فان اسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالاسلام الكفر الذى تاب منه ، وهل تُغفر له الذنوب التى فعلها فى حال الكفر ولم يتب منها فى الاسلام ؟ هذا فيه قولان معروفان .

(احدهما) يغفر له الجميع ، لاطلاق قوله ﷺ :

« الاسلام يهدم ماكان قبله » رواه مسلم^(١٥)

مع قوله تعالى :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا
قَدْ سَلَفَ ﴾^(١٦)

(١٤) سورة البقرة (٢/٢١٧)

(١٥) فى الايمان من «صحيحه» (١/١١٢ رقم ١٩٢)

(١٦) سورة الانفال (٨/٣٨)

(والقول الثاني) انه لا يستحق ان يغفر له بالاسلام الا ماتاب منه .
 فاذا اسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه في ذلك حكم امثاله من
 اهل الكبائر ، وهذا القول هو الذى تدل عليه الاصول والنصوص . فان
 الصحيحين^(١٧) ان النبي ﷺ قال له حكيم بن حزام يا رسول الله ! أنؤاخذ
 بما عَمِلنا في الجاهلية ؟ فقال :

« من أَحْسَنَ منكم في الاسلام لم يُؤاخذ بما عَمِلَ في
 الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أُخِذَ بالاول
 والآخر » .

فقد دل هذا النص على انه انما ترفع المؤاخذه بالاعمال التي فعلت في
 حال الجاهلية عن احسن لاعن لا يحسن ، وان لم يحسن اخذ بالاول
 والآخر ، ومن لم يتب منها فلم يحسن .
 وقوله تعالى :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ
 سَلَفَ ﴾^(١٨)

يدل على ان المنتهى عن شيء يغفر له ما قد سلف منه ، لا يدل على
 ان المنتهى عن شيء يغفر له ماسلف من غيره ؛ وذلك لان قول القائل
 لغيره : ان انتهيت غفرت لك ماتقدم ، ونحو ذلك يفهم منه عند
 الاطلاق انك ان انتهيت عن هذا الامر غفر لك ماتقدم منه ، وإذا
 انتهيت عن شيء غفر لك ماتقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك في قوله :
 « ان تبت » ، لا يفهم منه انك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ماتقدم من
 غيره .

(١٧) رواه البخارى في استتابة المرتدين (٤٩/٨) ومسلم في الايمان (١١١/١) رقم (١٩٠)

واخرجه البيهقى في «شعب الايمان» (رقم ٢٣) وانظر تحريجه هناك .

(١٨) سورة الانفال (٣٨/٨)

واما قول النبي ﷺ : « الاسلام يهدم ما قبله » وفي رواية « يَجْبُ ما كان قبله » فهذا قاله لما سلم عمرو بن العاص وطلب ان يغفر له ماتقدم من ذنبه فقال له :

« ياعمرو اما علمت ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وان التوبة تهدم ما كان قبلها ، وان الهجرة تهدم ما كان قبلها »^(١٩)

ومعلوم ان التوبة انما توجب مغفرة ماتاب منه ، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب .

(التوبة المطلقة)

(الاصل الثالث) ان الانسان قد يستحضر ذنوبًا فيتوب منها وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه ، لكن اذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنبًا ؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عامًا بفعل المأمور وترك المحذور ، وكذلك تتضمن ندمًا عامًا على كل محذور .

و« الندم » سواء قيل : انه من باب الاعتقادات ، أو من باب الارادات ، أو قيل : انه من باب الآلام التي تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها ؛ فاذا استشعر القلب انه فعل ما يضره ، حصل له معرفة بان الذي فعله كان من السيئات ، وهذا من باب الاعتقادات ، وكراهية لما كان فعله ، وهو من جنس الارادات ؛ وحصل له أذى وغم لما كان فعله ؛ وهذا من باب الآلام ، كالغموم والاحزان ، كما ان الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والارادات .

(١٩) راجع «مسلم» (١١٢/١) رقم (١٩٢)

ومن قال من المتفلسفة ومن اتبعهم : إن اللذة هي ادراك الملائم من حيث هو ملائم ، وإن الألم هو ادراك المنافر من حيث هو منافر فقد غلط في ذلك . فان اللذة والألم حالان يتعقبان إدراك الملائم والمنافر فان الحب لما يلائمه ، كالطعام المشتهى مثلاً له ثلاثة احوال :

(احدها) الحب ، كالشهوة للطعام .

(والثاني) ادراك المحبوب ، كأكل الطعام .

(والثالث) اللذة الحاصلة بذلك ، واللذة أمر مغاير للشهوة ولذوق المشتهى ؛ بل هي حاصلة لذوق المشتهى ؛ ليست نفس ذوق المشتهى .

وكذلك « المكروه » كالضرب مثلاً . فان كراهته شيء ، وحصوله شيء آخر ، والألم الحاصل به ثالث .

وكذلك ماللعارفين اهل محبة الله من النعيم والسرور بذلك ؛ فان حبهم لله شيء ، ثم ما يحصل من ذكر المحبوب شيء ، ثم اللذة الحاصلة بذلك امر ثالث ، ولاريب ان الحب مشروط بشعور المحبوب ، كما ان الشهوة مشروطة بشعور المشتهى ؛ لكن الشعور المشروط في اللذة غير الشعور المشروط في المحبة ، فهذا الثاني يسمى إدراكاً وذوقاً ونيلاً ووجدًا ووصالاً ، ونحو ذلك مما يعبر به عن ادراك المحبوب ، سواء كان بالباطن أو الظاهر ، ثم هذا الذوق يستلزم اللذة ، واللذة امر يحسه الحى باطنًا وظاهرًا .

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح^(٢٠) :

« ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا »

(٢٠) أخرجه مسلم في الايمان (٦٢/١) وراجع «شعب الايمان» للبيهقي (رقم ١٩٥) لتخرجه .

وفي الصحيحين^(٢١) عنه عليه السلام انه قال :

« ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ
كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ سَوَاهِمَا ، وَمَنْ كَانَ
يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ
فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي
النَّارِ »

فبين عليه السلام ان ذوق طعم الايمان لمن رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينًا ،
وبمحمد نبيًا ، وإن وجد حلاوة الايمان حاصل لمن كان حبه لله ورسوله
اشد من حبه لغيرهما ، ومن كان يحب شخصًا لله لالغيره ، ومن كان
يكره ضد الايمان ، كما يكره ان يلقي في النار ، فهذا الحب للايمان ،
والكراهية للكفر استلزم حلاوة الايمان ، كما استلزم الرضى المتقدم ذوق
طعم الايمان ، وهذا هو اللذة ، وليس هو نفس التصديق والمعرفة
الحاصلة في القلب ، ولانفس الحب الحاصل في القلب ، بل هذا نتيجة
ذاك وثمرته ولازم له ، وهى أمور متلازمة ، فلاتوجد اللذة الا بحب
وذوق ، وإلا فمن أحب شيئًا ولم يذق منه شيئًا لم يجد لذة ، كالذى يشتهي
الطعام ولم يذق منه شيئًا ، ولو ذاق مالا يحبه لم يجد لذة ، كمن ذاق مالا
يريده ، فاذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك .

وان حصل بغضه وذوق البغض حصل الألم ، فالذى يبغض الذنب
ولا يفعله لا يندم ، والذى لا يبغضه لا يندم على فعله ، فاذا فعله وعرف
ان هذا مما يبغضه ويضُرُّه ندم على فعله اياه ، وفي المسند عن ابن مسعود
عن النبي عليه السلام انه قال :

(٢١) أخرجه البخارى في الاكراه (٥٦/٨) ومسلم في الايمان (٦٦/١) رقم ٦٧-٦٨

وأخرجه البيهقى في «شعب الايمان» (حديث رقم ٤٠١) وانظر تخريجه فيه .

(التوبة العامة)

إذا تبين هذا ، فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها ، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص ، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه ، لقوة ارادته إياه أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح ، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة ، وأما ما كان لوحضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شملتة .

وأما «التوبة المطلقة» وهي أن يتوب توبةً مجملة ، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب ، فهذه لا تُوجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق ، لكن هذه تصلح أن تكون سبباً لغفران المعين ، كما تصلح أن تكون سبباً لغفران الجميع ، بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام ، كما تناولت الذنوب تناولاً عاماً .

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من الأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه مما فعله من بعض الفواحش ، فإنّ ما أمر الله به من

(٢٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/٣٧٦، ٤٢٣، ٤٣٣) والحاكم (٤/٢٤٣)

وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» في باب التوبة وهي الشعبة السابعة والأربعون .
وراجع تخريج الحديث فيه .

حقائق الايمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقا ، اعظم نفعا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة ، كحب الله ورسوله ، فان هذا اعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت في الصحيح^(٢٣) : انه كان على عهد النبي ﷺ رجل يُدعى حمّارًا ، وكان يشرب الخمر ، وكان كلما أتى به الى النبي ﷺ جَلَدَه الحَدَّ ، فلما كثر ذلك منه أتى به مرّة فأمر بجلده فلغنه رجل فقال النبي ﷺ :

« لَا تَلْعَنُهُ فَانْه يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

فنهى عن لعنه مع اصرار على الشرب لكونه يحب الله ورسوله ، مع انه ﷺ لعن في الخمر عشرة :

« لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيتها وحاملها والمحمولة اليه ، وبائعها ومبتاعها وأكل ثمنها »^(٢٤)

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لخوف اللعنة له .

وكذلك «التكفير المطلق» و «الوعيد المطلق» ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطا بثبوت شروط وانتفاء موانع ، فلا يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين ، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته ، ولا يلحق المشفوع له ، والمغفور له ، فان الذنوب تزول عقوبتها التي هي جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة

(٢٣) رواه البخارى في الحدود من «صحيحه» (١٤/٨)

(٢٤) واخرجه ابوداود (٨١/٤-٨٢ رقم ٣٦٧٤) وابن ماجه (١١٢١/٢ رقم ٣٣٨٠) والحاكم في «المستدرک» (٣٢/٢) .

— لكنها من عقوبات الدنيا — وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة ، وكذلك ما يحصل في عرصات القيامة ، وتزول أيضا بدعاء المؤمنين : كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع ، كمن يشفع فيه سيّد الشفعاء محمد ﷺ تسليما .

وحينئذ فأىّ ذنب تاب منه ارتفع موجبُه ، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التي لم يتب منها ، فالشدة اذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ماتاب منه ، بخلاف ما لم يتب منه ، بخلاف صاحب التوبة العامة .

والناس في غالب احوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم الى ذلك ، فان التوبة واجبة على كل عبد في كل حال ، لانه دائما يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور ، او ما اعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه ان يتوب دائما ، والله اعلم .

واما قول السائل : ما السبب في ان الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق ؟ وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله ؟

فيقال : سبب هذا تحقيق التوحيد : «توحيد الربوبية» و«توحيد الالهية» .

«فتوحيد الربوبية» انه لا خالق الا الله ، فلا يستقل شيء سواه باحداث أمر من الأمور ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما سواه اذا قدر سببا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق ، فاذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه ، حتى ما يطلب من العبد من الافعال الاختيارية لا يفعلها الا باعانة الله له ، كأن يجعله فاعلا لها بما يخلقه فيه من الارادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة ، وعند وجود القدرة التامة والارادة الجازمة يجب وجود

المقدور .

فشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده ، فإشَاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئا ، بل ما أَراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره ان لم يُعِنه الربُّ بها لم يحصل مراده ، ونفس ارادته لا تحصل الا بمشيئة الله تعالى ، كما قال تعالى :

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢٥)

وقال تعالى :

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾^(٢٦)

وقال :

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾^(٢٧) .

والراجى لخلق طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق ، وذلك المخلوق عاجز عنه ، ثم هذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، فمن كمال نعمته وإحسانه الى عباده المؤمنين ان يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم الى التوحيد ، ثم ان وحده العبد توحيد الالهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة .

(٢٥) سورة التكوير (٢٨/٨١-٢٩)

(٢٦) سورة الدهر (٢٨/٧٦-٣١)

(٢٧) سورة المدثر (٥٤/٧٤-٥٦)

وان كان ممن قيل فيه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِيًا أَوْ
قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ
مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢٨)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا
إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمُ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا ﴾^(٢٩)

كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه .

كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بانه خالق كل شيء ثم
يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له ، قال تعالى :

﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟
سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ قُلْ : مَنْ رَبُّ
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ :
لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟
سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ ، قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾^(٣٠)

(٢٨) سورة يونس (١٢/١٠)

(٢٩) سورة الاسراء (١٧/٦٧)

(٣٠) سورة المومنون (٢٣/٨٤-٨٩)

وقال تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(٣١)

وهذا قد ذكر في القرآن في غير موضع .

فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين ان ينزل بهم الشدة والضَّرَّ وما يلجئهم الى توحيده فيدعونه مُخلصين له الدين ، ويرجونه لا يرجون احدا سواه ، وتتعلق قلوبهم به لابعيره ، فيحصل لهم من التوكل عليه والانابة اليه . وحلاوة الايمان وذوق طعمه ، والبراءة من الشرك ما هو اعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف ، أو الجذب ، أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة ، فان ذلك لذاتٌ بدنية ونعمٌ دنيوية قد يحصل للكافر منها اعظم مما يحصل للمؤمن .

واما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من ان يعبر عن كنهه مقال ، أو يستحضر نفضيله بال ، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر ايمانه ، ولهذا قال بعض السلف : يا ابن آدم ! لقد بورك لك في حاجة اكثر فيها من قرع باب سيدك .

وقال بعض الشيوخ : انه ليكون لى الى الله حاجة فأدعوه فيفتح لى من لزيد معرفته وحلاوة مناجاته ما لا احب معه ان يُعَجَّلَ قضاء حاجتى خشية ان تنصرف نفسى عن ذلك ؛ لأن النفس لا تريد الا حظها فاذا قضى انصرفت .

(٣١) سورة العنكبوت. (٢٩١ ٦١)

وفي بعض الاسرائيليات يابن آدم ! البلاء يجمع بيني وبينك ،
والعافية تجمع بينك وبين نفسك .

وهذا المعنى كثير ، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن
للمؤمن ، وما من مؤمن الا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ماذكرناه ،
فان ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه الا من كان له ذوق وحس
بذلك .

ولفظ « الذوق » وان كان قديظن انه في الاصل مختص بذوق اللسان
فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل في
الاحساس بالملائم والمنافر ، كما ان لفظ « الاحساس » في عرف الاستعمال
عام فيما يحس بالحواس الخمس ، بل وبالباطن .

واما في اللغة فأصله « الرؤية » كما قال :

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ ﴾^(٣٢)

و (المقصود) لفظ « الذوق » قال تعالى :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾^(٣٣)

فجعل الخوف والجوع مذوقًا ؛ و اضاف اليها اللباس ليشعر انه لبس
الجائع والخائف فشمله واحاط به احاطة اللباس باللباس ؛ بخلاف من
كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع ، وقال تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾^(٣٤)

(٣٢) سورة مريم (٩٨/١٩)

(٣٣) سورة الحل (١١٢/١٦)

(٣٤) سورة الصافات (٣٨/٣٧) وفي الاصل «مذوقوا العذاب الاليم» وليس في القرآن . نعم فيه
«نذقه من عذاب اليم» (٢٥/٢٢)

وقال تعالى :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾^(٣٥)

وقال تعالى :

﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾^(٣٦)

وقال :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ ﴾^(٣٧)

وقال تعالى :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا
وَّغَسَّاقًا ﴾^(٣٨)

وقال :

﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ
الْأَكْبَرِ ﴾^(٣٩)

وقد قال النبي ﷺ :

« ذاق طعم الايمان من رضى بالله رباً وبالاسلام ديناً

(٣٥) سورة الدخان (٤٤/٤٩)

(٣٦) سورة القمر (٥٤/٤٨)

(٣٧) سورة الدخان (٤٤/٥٦)

(٣٨) سورة النبا (٧٨/٢٤-٢٥)

(٣٩) سورة السجدة (٣٢/٢١)

وبمحمد نبياً»^(٤٠)

فاستعمال لفظ « الذوق » في ادراك الملائم والمنافر كثير . وقال النبي ﷺ :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان »^(٤١) كما تقدم ذكر الحديث .

فوجود المؤمن حلاوة الايمان في قلبه وذوق طعم الايمان امر يعرفه من حصل له هذا الوجد .

وهذا الذوق ، اصحابه فيه يتفاوتون ، فالذى يحصل لاهل الايمان عند تجريد توحيد قلوبهم الى الله واقبالهم عليه دون ماسواه بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين ، لا يُحِبُّون شيئاً الا له ، ولا يتوكلون الا عليه ، ولا يوالون الا فيه ، ولا يعادون الا له ، ولا يسألون الا اياه ، ولا يرجون الا اياه ، ولا يخافون الا اياه ، يعبدونه ويستعينون له وبه ، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق ، وعند الخلق بلا هوى ؛ قدفنت عنهم ارادة ماسواه بارادته ، ومحبة ماسواه بمحبته ، وخوف ماسواه بخوفه ، ورجاء ماسواه برجائه ، ودعاء ماسواه بدعائه ، هو امر لا يعرفه بالذوق والوجد الا من له نصيب ، وما من مؤمن الا له منه نصيب .

وهذا هو حقيقة الاسلام الذى بعث الله به الرسل ، وانزل به الكتب وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه . والله سبحانه اعلم .



(٤٠) راجع التعليق رقم (٢٨٤)

(٤١) انظر التعليق رقم (٢٨٥)

فهرس المباحت

٥	١ كلمة الناشر
٧	٢ سئل شيخ الاسلام
٨	٣ معنى «الدعاء»
١٠	٤ الدعاء والصلاة
١٢	٥ المسألة والعبادة
١٢	٦ الخوف والرجاء
١٤	٧ العزائم تنفسخ عند وجود الحقائق
١٥	٨ ادعاء الصوفية المحو والفناء
١٦	٩ الدعاء عبادة ومسألة
١٨	١٠ وجوه مختلفة للمسألة
٢٠	١١ احسن طريق للسؤال
٢٢	١٢ خصائص أدعية القرآن
٢٣	١٣ لماذا كان دعاء ذى النون بصيغة الخبر ؟
٢٣	١٤ تفسير «سبحانك»
٢٥	١٥ معنى «لا اله الا انت»
٢٧	١٦ افضل الكلام عند الله
١١٠-٣٣	فصل
٣٣	١٧ «لم كانت كاشفة للكرب؟»
٣٤	١٨ الرجاء من الله وحده

٣٨	١٩ الدعاء لا يصلح إلا لله
٤٠	٢٠ الاخلاص في الدين
٤٢	٢١ الصلة بين التوحيد والاستغفار
٤٥	٢٢ توحيد الالهية وتوحيد الربوبية
٤٧	٢٣ الفرق بين الحب لله والحب مع الله
٤٨	٢٤ طاعة الرسول هي طاعة الله
٥٠	٢٥ معنى «الايان»
٥٨	٢٦ الدين لا يكمل الا بالعمل
٥٩	٢٧ تنوع دلالة الفاظ القرآن
٦٢	٢٨ تحقيق توحيد الالهية
٦٣	٢٩ الفرق بين الرياء والعجب
٦٦	٣٠ مال الله ورسوله ما يصرف في طاعة الله ورسوله
٦٧	٣١ دلائل خطأ رأى الفقهاء
	٣٢ العبادة والسؤال وسيلتان لتحقيق توحيد الالهية وتوحيد
٧٠	الربوبية
٧١	٣٣ الله والرب
٧٨	٣٤ عصمة الأنبياء
٧٩	٣٥ تنفيذ قصة الغرانيق
٨٥	٣٦ توبة الأنبياء واستغفارهم
٨٨	٣٧ خطأ المفسرين
٩١	٣٨ العبرة بالعاقبة في الأفضلية
٩٥	٣٩ فضيلة التوبة
٩٧	٤٠ التوبة وسيلة للمغفرة والمودة
٩٩	٤١ ما يجب على التائب
١٠٠	٤٢ المبادرة بالتوبة
١٠٢	٤٣ توبة الأنبياء
١٠٧	٤٤ صدور الذنب من الأنبياء

١٣٢-١١١

فصل

١١١

٤٥ «لابد للمغفرة من التوبة»

١١٣

٤٦ الاعتراف فقط لا يكفي

١١٨

٤٧ التوبة من بعض الذنوب دون بعض تصح

١١٩

٤٨ هل الكافر يحتاج الى توبة ؟

١٢١

٤٩ التوبة المطلقة

١٢٤

٥٠ التوبة العامة

١٣٥-١٣٣

٥١ فهرس المباحث



صدر أخيراً
من « الدار السلفية »
الجزء الثاني من الموسوعة الحديثية الكبيرة
« الجامع لشعب الايمان »
للامام الحافظ ابى بكر احمد بن الحسين
البيهقى (م ٤٥٨هـ)
بالتحقيق العلمى والتعليقات النافعة
وتخرج الاحاديث .
والجزء الثالث منه تحت الطبع



مطبخ المار السلفية

To: www.al-mostafa.com